المختار الإسلامى

www.almokhtar-aleslami.com مجلة كل المسلمين

العدد ٣٧٨ - السنة ٣٥ - ٢٩ صفر ١٤٣٥هـ - ١ يناير ٢٠١٤ - الثمن خمسة جنيهات

أطفال الشوارع .. وتراب الطريق !!

لماذا يدعم أوباما بشار الأسد ؟؟

مشكلة سد النهضة الإثيوبى مرة أخرى !!

مزراب الأموال المهاجرة !!

في تغيير جوهري في مجرى حوض النيل ذاته .

- أن الذي كان متاحاً ومشروعاً هو مشروع قناة جونجلي في جنوب السودان لزيادة مياه النيل الأبيض، وهذا لم يعد سهلاً بسبب انفصال جنوب السودان أولاً، ثم المشاكل الداخلية في جنوب السودان ذاته .

- ومن ثم فإن الحل الوحيد المتاح هو تحقيق الوحدة بين مصر والسودان، ونكرر ما فعلناه دائماً، أن مصر بدون السودان دولة ناقصة المقومات، وأن السودان بدون مصر دولة بلا مقومات، وأنها معرضة للمزيد من التفتت في الشمال والجنوب على حد سواء، وأنه لا مستقبل لمصر والسودان إلا بالوحدة الاندماجية بينهما، كما كان الحال دائماً، وكما فهم محمد علي ثم الخديوي إسماعيل وحتى عام ١٩٥٦ عندما انفصلت السودان عن مصر، وأن هذه الحقيقة كانت مثار اتفاق بين كل الحكومات والأنظمة بل والأحزاب والقوى السياسية على اختلافها في مصر بل إن عرض الإنجليز على مصر حكومات أقليات وأغلبيات وأحزاب مع الملك أو وفدية أو حتى مع الإنجليز ذاتهم الاستقلال مقابل الاعتراف باستقلال السودان، كان أمراً مرفوضاً من الجميع، حتى إن النحاس باشا زعيم حزب الوفد قال تقطع يدي ولا تفصل السودان عن مصر، وأن كل المفاوضات بين الحكومات المصرية المختلفة مع الإنجليز حول موضوع الاستقلال، كانت تصطدم بهذه النقطة تحديداً .

- أن أوراق الضغط المصرية لن تكون قوية إلا بتواجد الصوماليين وإعادة حلم الدولة الصومالية الموحدة تحت قيادة طموح وشابة تسعى لاستعادة الأراضي الصومالية من إثيوبيا أوجادين مثلاً ومن غيرها من البلاد المجاورة، وأن مصر تمتلك بالفعل القدرة على مساعدة الصوماليين على الوحدة، لأن الصوماليين مثل المصريين والسودانيين تماماً، فهم عرب مسلمون سنة بل وشافعية المذهب مثل معظم الشعب المصري، وأن هذه هي الورقة الحقيقية القوية التي ستجعل الإثيوبيين يفكرون ألف مرة قبل محاولة اغتصاب حق مصر أو السطو على مياه النيل بطريقة أو بأخرى .. وكل الأوراق الأخرى مثل ورقة إريتريا مثلاً، أو ورقة مساعدة إثيوبيا فنياً أو اقتصادياً أو استخدام القانون الدولي ... إلخ كلها أوراق أضعف من أن تنجح في الضغط على إثيوبيا .

- في كل الأحوال فإن هذه المشكلة طويلة المدى، ولن يكون سد النهضة آخر المشكلات، وما لم تتحرك مصر في هذا الملف بإيجابية وخيال وقوة، فإن مستقبل وجود الشعب المصري كله ودولة مصر كلها في خطر شديد .

د. محمد مورو

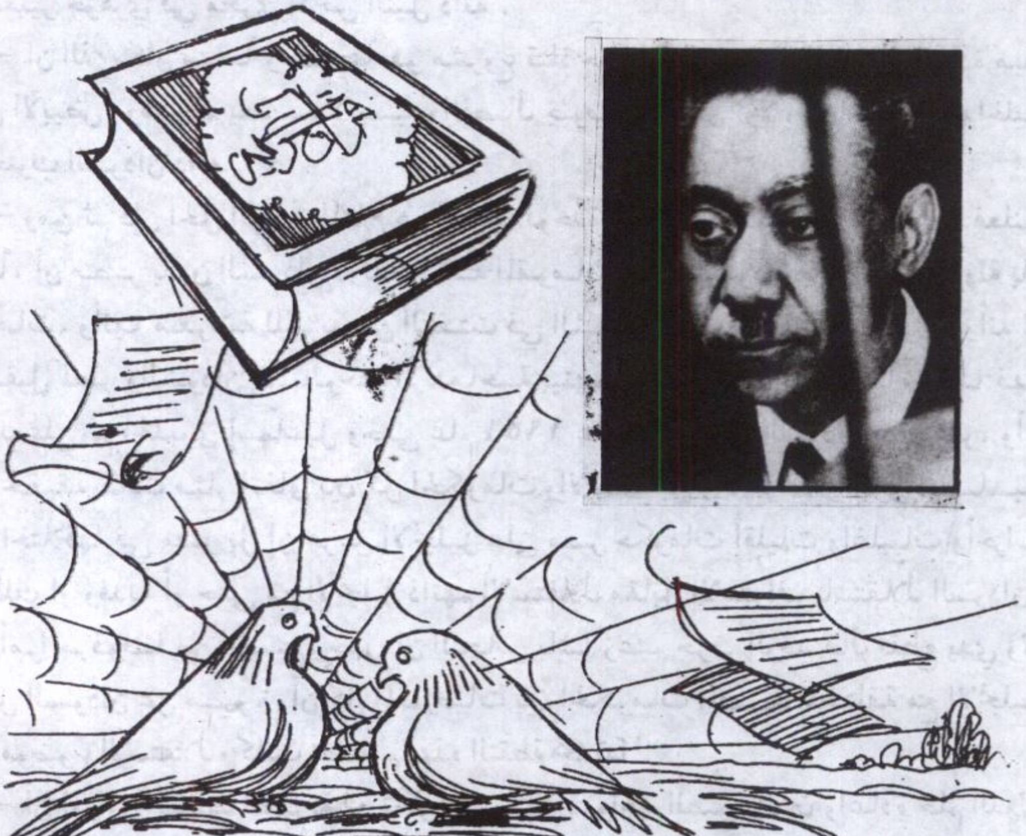

رسالة الأزهر ومكانته

في مجلة الرسالة العدد ٩٣٧ الصادر في يوم الإثنين ١٣ من رمضان ١٣٧٠ هـ الموافق ١٨ من يونيو ١٩٥١م كتب الشهيد سيد قطب رحمه الله هذه المقالة تحت عنوان : (للأزهر رسالة .. ولكنه لا يؤديها) .. هذا المعهد العظيم العريق، الذي قام حارساً على الثقافة العربية، والثقافة الإسلامية، زهاء ألف عام .. لم ينته دوره بعد، ولم تكمل رسالته .. ودوره الذي ينتظره كبير، ورسالته التي تناديه ضخمة .. ولكنه لا يؤديها !.. لقد أدى الأزهر دوره في تلك الأجيال المتعاقبة التي انحسر فيها المد الإسلامي، ووقف جريانه؛ وانطوى فيها العالم الإسلامي على نفسه وانزوي عن الركب المندفع إلى الأمام، وراح يجتر ما أنبتته النهضة وما خلفته، فيستهلكه ولا يزيد عليه .. أدى الأزهر دوره في هذه الحقبة فوقف حارساً على

ذلك التراث، يؤدي وظيفة الحارس ولا يضيف للتراث شيئاً بذكر، ولم تكن هذه بالمهمة الهينة في ذلك الأوان، ولا بالقليلة القيمة في تاريخ الشعوب.

ولكن هذه الحقبة قد انقضى أمرها - والحمد لله - ودبت اليقظة في العالم الإسلامي من جديد .. وتطلع فإذا قرون مضت وقرون ؛ وإذا هو متخلف في حقول شتى؛ وإذا هو يريد وصل ما انقطع، ويعتزم أن يتخذ له مكاناً في القافلة، ليس في ذيلها على وجه اليقين .. وتلفت الأزهر فإذا هو حيث هو، والقافلة كلها تسير .. وعز على الأزهر أن يقف وحده، فإذا هو يهم، ولكنه فيما يبدو منه حتى اليوم، لم يدرك أين مكانه، ولم يعرف لنفسه قدرها.

إنه يحاول أن يتجدد، ولكن على طريقة التقليد .. إنه يريد أن يلحق، ولكن ليلهث وراء القافلة ؟، لا ليأخذ بزمامها ويوجهها وإني لأعيذ الأزهر العظيم أن يكون في ذلك الموقف المهين إن رسالة الأزهر اليوم ليست مجرد العكوف على الحواشي والشروح والتنبيهات والاعتراضات .. وليست كذلك المحاكاة لبعض المعاهد والكليات الجامعية باسم التجدد .. فكلتاهما هي الأدنى بالقياس إلى رسالة الأزهر الحقيقة .. إن رسالة الأزهر اليوم رسالة إنشائية إبداعية، لا تفسيرية ولا تقليدية .. رسالة خلق وبناء وكفاح .. رسالة بعث للفكرة الإسلامية وللنهضة الإسلامية.

إن العالم اليوم تسيره نظريات فكرية واجتماعية معينة : الرأسمالية تغلب في الغرب، والشيوعية تغلب في الشرق .. ونحن في مصر وفي العالم الإسلامي نلهث في اللحاق بإحداهما، يجذبنا البريق من هنا ومن هناك، ولا يجذبنا البريق من هنا ومن هناك، ولا وجهة لنا مقررة، ولا فكرة لنا مستنيرة .. والجامعة والمدرسة، والجماهير والدولة، كلها تلهث .. وكلها تركض، وكلها مبهورة الأنفاس والمشاعر، لاعن خيرة ولاعن بصيرة، ولكنه البهر والتلاشي والدوار !.. هنا تتعين رسالة الأزهر، رسالته التي يجب أن يدركها، وأن يؤمن بها، وأن يؤديها حق الأداء إن للإسلام فكرة مستقلة معينة عن الحياة .. فكرة كلية تمد فروعها إلى كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية الكثيرة .. وإن للإسلام رأياً في الشعور والسلوك، في العبادة والعمل، في الاقتصاد، والاجتماع، في سياسة الحكم وسياسة المال، في سياسة الدولة الخارجية والداخلية ... في كل باب من أبواب النشاط الإنساني في كل اتجاه..

ورسالة الأزهر الأولى هي أن يعكف على استخلاص هذه الفكرة الكلية، وعلى تنميتها بالبحوث والدراسات في كل حقل من حقول المعرفة، وعلى إعدادها للتطبيق العملي في واقع الحياة اليومية الحاضرة، ثم على الدعوة إليها في النهاية بعد هذه الخطوات.

رسالة الأزهر الأولى أن ينشئ ثقافة إسلامية كاملة مستمدة من الأصول الأولى للإسلام، ومن الحياة النامية المتجددة في كل آن .. هذه الثقافة لن يجدها الأزهر في الحواشي والشروح والتنبيهات والاعتراضات، أو قد يجدها ولكن في حاجة إلى أن تعرض بأسلوب العصر وطريقته، وأن تنمى بالدراسات والإضافات، كي تصبح في متناول الجماهير كلها، وفي حقول الثقافة جميعها.

ليست وظيفة الأزهر أن يقف بين الحين والحين لينادي بتدريس الدين في المدارس على أن يتولى تدريسه والتفتيش عليه رجال الأزهر كما يقول دائماً ! وليست وظيفته أن يقف بين الحين والحين ليطالب برد المجالس الحسبية إلى سلطة القضاء الشرعي .. وليست وظيفته أن ينادي بالويل والثبور على انحطاط الأخلاق وانتهاك الحرمات .

إنها مجرد صيحات تقليدية صغيرة لا تلقى إلا الهزؤ والزراية من الدولة ومن الناس .. أين هي الثقافة الإسلامية التي يريد الأزهر أن تدرس بالمدارس ؟ إن كان يعني تلك الحواشي والشروح التي ثمرتها حقب الانطواء والاجترار، فتلك كفيلة أن تذهب بالتلاميذ إلى الكفر أو البلبلة ! وإن كان يعني مجرد حفظ سور من القرآن وشئ من الأحكام الفقهية في العبادات، فألوف وألوف يحفظون القرآن كله ويعرفون تلك الأحكام، والإسلام بعد ذلك مهمل لا يعرفه الأكثرون .

إنه ينبغي أن توجد أولا ثقافة إسلامية .. ثقافة حقيقية واضحة حية، مطبقة على واقع الحياة الحاضر، تتناول مشكلات الحياة الفردية والاجتماعية القائمة بالبحث، وتوجد لها الحلول، ويومئذ ستزحف هذه الثقافة بذاتها إلى المدارس وإلى المجتمعات، ستزحف بحكم أنها ثقافة حية، لا بحكم أن طائفة تنفع أولا تنتفع بتقريرها في المدارس والمحاكم والدواوين! وتلك هي سنة الحياة .

ما أرى الإسلام في العمل والأجور ؟ ما رأيه في توزيع الملكيات والثروات ؟ ما رأيه في علاقة الفرد بالدولة، وعلاقة الدولة بالفرد ؟ ما رأيه في سياسة الدولة الخارجية وفي المجتمعات الدولية ؟ ما رأيه في الجريمة والعقوبة ؟ ما رأيه في المعاملات المالية والاقتصادية ؟ ما رأيه في طرق الحكم ونظام الإدارة ؟ ما رأيه في خلق الكون وناموس الحياة ؟ إن للإسلام لرأيا في حقل من هذه الحقول .

وحول هذه الآراء يمكن أن تنهض ثقافة متشعبة الفروع، متشابكة الأصول، تواجه فلسفات الشرق وفلسفات الغرب، وتعلن عن وجودها العالمي في هذا المضمار .. والأزهر هو الذي يجب أن يمثل هذه الثقافة، فيكون مهبطها الذي تطلب فيه، وتكون موضوعه الذي يعالجه، وعندئذ يقال : هذه فكرة الإسلام وهذه فكرة

الثقافة الغربية .. وعندئذ يمكن أن تنهض الأحزاب لتمثل فكرة في الحياة ونظاماً في المجتمع، ولتضع برامجها في ظل هذه الفكرة أن تلك، وللشعب بعدها أن يختار .. يختار على أسس واضحة معروفة له، لا مدسوسة في بطون الكتب الصفر، نائمة منذ ألف عام ! وعندئذ يمكن أن يقوم الحكم على أساس هذه الفكرة، فيحققها في كل حقل من حقول الحياة، لا في تلك الجزئيات التي يطالب بها الأزهر في بعض الأحيان، فتذهب صيحته في الهواء ! وهناك عمل جبار ينتظر الأزهر .. هناك تنمية التشريع الإسلامي الذي وقف ألف عام، ليساير حاجات الحياة كافة ميادين الحياة : في العقوبات والمعاملات، في التجارة والملاحة، في السياسة والحكم، في علاقات الأفراد والجماعات وهناك إعادة كتابة التاريخ - التاريخ الذي نتلقفه من أفواه أجنبية، مصوغا في ظل فلسفات تناقض فكرة الإسلام عن الحياة - لنكتبه من زاوية النظر الإسلامية إلى الحياة وإلى الحوادث، وإلى القوى التي تعمل في ظاهر الكون وباطنه على السواء .

وهناك اللغة العربية وآدابها وتراثها، مدروسة بعقلية إسلامية، مسلطاً عليها ضوء الفكرة الإسلامية .. وما من شك في أننا نتلقى هذه الدراسات اليوم من أيدي المستشرقين، متأثرة - لا أقول بكيد المستشرقين للإسلام - ولكن على أقل تقدير البشرية، وتأثيراتهم الخاصة ببيئات لا يتفق جوها مع جو الإسلام .

إن الحياة الإنسانية وعرة، وإن الإنسان ليعيش بمجموعة نفسه وكيانه، فلا يمكن فصل فلسفته الفكرية عن مشاعره، ولا يمكن فصل شعوره عن سلوكه، ولا يمكن فصل سلوكه عما توحي به الثقافات والأحداث .. وحين نريد أن يكون لنا وجود مستقل يشعر به الآخرون يجب أن تكون لنا فكرة خاصة عن الحياة، ونظم مستمدة من هذه الفكرة، وثقافات تنبع منها وتنميها .. ولن يكون معنى هذا هو العزلة الفكرية والثقافة؛ ولكن سيكون معناه أن تكون لنا بيئة حية تنتفع بالغذاء والشراب من كل حقل ومن كل ينبوع، وألا نكون جثة ميتة موشاة بالرقع من جميع الألوان والعلامات !

ترى هل يعرف الأزهر واجبه، وينهض برسالته ؟ إن أملي كبير لا في الجيل الذي شاخ في الأزهر، ولكن في جيل الشباب .

إعداد : أبو رقية أحمد سليمان الدبشة

من علماء الأزهر الشريف

لماذا يدعم أوباما بشار الأسد ؟؟

يجب ألا يصدمكم العنوان .. فكل من تابع ما يسمى بجنيف "٢" وتصريحات الرئيس باراك أوباما في لقائه مع الرئيس الفرنسي أولاند . سيصل إلى تلك القناعة بسهولة بداية فإن بشار الأسد ونظامه قتل وأباد مئات الألوف، واعتقل مثلهم، وهجر الملايين في الداخل والخارج، واستخدم كل أنواع الأسلحة ضد شعبه ومن ثم فهو ليس أقل من القذافي في هذا الصدد . إذن ما الذي يمنع الغرب وأمريكا من التدخل، اللهم إلا إذا كان ما يحدث يروق لهم .

نعم يروق لهم، لأن تدمير سوريا ، بعد إضعاف العراق ومحاولة إضعاف مصر هدف أمريكي وغربي ثابت، وجعل منطقة الشام ملتهبة هدف أمريكي وإسرائيلي ثابت، حتى لا يفكر أحد في الكفاح ضد إسرائيل، بدلاً من مواجهة أمريكا وإسرائيل كما كان يحدث سابقاً، سواء بصدق النية أو سوء النية والله أعلم بالنوايا . سواء عن طريق حماس والجهاد الفلسطيني، والسلفية الجهادية، بل وحزب الله الشيعي، فإن الجميع أصبح يجد عدواً أكبر وأخطر فالسلفية الجهادية التي أوجعت أمريكا في مانهاتن في سبتمبر ٢٠٠١ وكان من الممكن أن توجع إسرائيل أصبح لها عدو يسمى بشار الأسد ونظامه، والعكس صحيح طبعاً، وكذا داعش والنصرة والجيش الحر والجبهة الإسلامية ... إلخ . كل يقاتل بشار ويقاتل بعضه البعض، وحزب الله وإيران وبشار أصبح لهم عدو غير أمريكا وإسرائيل هو ما يسمى بالإرهاب الأصولي، والتطرف السني، وكأننا تحديداً نعيش في، نفس الأجواء التي عاشتها الأندلس قبل سقوطها .

أمريكا إذن مستفيدة وكذلك إسرائيل من استمرار الأمر على هذا النحو .. فقد حققت تحييد السلاح الكيماوي السوري

بقلم: د. محمد مورو

وهذا يطمئن إسرائيل، وحققت انشغال الكل بالكل، وحققت أكثر أن كل من كان يفكر في الهجوم على أمريكا وإسرائيل عليه الآن أن يتجه إلى سوريا أو العراق أو سيناء لممارسة الجهاد ضد آخرين وليس ضد أمريكا وإسرائيل، وهكذا فإن أمريكا تخلصت من جزء كبير من الإرهابيين أو الجهاديين الذين كانوا يستهدفون المصالح الأمريكية والغربية والإسرائيلية في العالم كله، وجعلت لهم عدواً آخر من بني دينهم أو حتى وطنهم وكذا من نفس المذهب غالباً .. دون أن تدفع طلقة واحدة، ومن ثم فإن من يموت في تلك الحرب يريح أمريكا وإسرائيل سواء كان من هؤلاء أو أولئك.

والغريب أن كل طرف من تلك الأطراف، يصيغ نظرية ثورية، أو إسلامية أو وطنية ويهندس بناءً فكرياً ليدافع عن وجهة نظره، بحيث لا تقتصر الحرب على هذا الجيل أو هذه السنة، بل تمتد سنوات وأجيال.

ومن الغريب أكثر أن البعض من هؤلاء يقول بهذا الراي أن أمريكا من مصلحتها ما يحدث الآن، ومع ذلك يستمر فيه، فهل رأى أحدكم أغبى من هذا السلوك ... رحماك يا ربي.

في فهم المسألة الإيرانية بخصوص مصر

نتابع في بعض الأحيان تصريحات ومواقف إيرانية متضاربة أحياناً وغير مفهومة أحياناً آخرى.

وعلى سبيل المثال فإن تصريحات المتحدث الرسمي باسم الخارجية الإيرانية عندما أعلن انتقاد بلاده لما أسماه عنف النظام المصري ضد المتظاهرين ثم ما لبث أن أعلن مسئول أعلى أن هذا شأن داخلي مصري، وأن إيران ترى أن من حق الحكومة المصرية أن تتصرف كما تشاء ثم قام أحد قيادات الحرس الثوري الإيراني في أحد تجمعات قوات الحرس الثوري الإيراني في إحدى المدن الإيرانية أن أعلن أن الحرس الثوري الإيراني سوف يقوم بإنشاء فرق له في مصر، أو بمعنى آخر أن مصر ستكون ولاية تابعة لإيران بعد أن

يفتحها هذا الحرس الثوري أو يقوم الإسلاميون المصريون بإسقاط النظام لحساب المرشد الإيراني وليس المرشد المصري مثلاً، ثم لماذا لا تكون إيران نفسها تابعة للمرشد المصري أليس السنة أكثر من الشيعة وأليس مصر سكانها أكبر من إيران مثلاً، ومصر هي التي تصدت للتتار والصليبيين . . . إلخ .. ثم عاد مسئول أرفع مستوى في الحرس الإيراني فقال إن هذه التصريحات قد أسيء فهمها .

أياً كان الأمر فإن الموقف الإيراني يحتاج إلى قدر من التحليل والفهم لإدراك المسألة .

بداية فإن الموقف الحقيقي الإيراني يظهره موقف الخلافة العراقية الموالية لإيران طبعاً . ويظهره أيضاً موقف قطاعات من الطرق الصوفية المصرية المعروفة بولائها الكامل لإيران وهو قطاع من الصوفية وليس كل الصوفية، وهؤلاء يعلنون جهاراً نهاراً وقوفهم مع السيسي ومبايعتهم له، وأنهم قالوا نعم للدستور الأخير، وأنهم كانوا ولا يزالون ضد حكم الإخوان . وهذا هو الموقف الحقيقي لإيران، وطبيعي أن إيران لا ترتاح إلى الإخوان المسلمين، لأسباب تاريخية ومذهبية . ولا تريد أن يظهر حكم إسلامي في مصر، حتى لا تنافسها مصر في النفوذ الإسلامي في المنطقة سواء بمفردها أو بالتعامل مع الحكومة الإسلامية في تركيا، ويكفي إيران أن تتنافس مع تركيا فقط وليس مصر وتركيا أو مصر مع تركيا، وتصبح ممثلة للشيعة فقط في مواجهة ممثلين إسلاميين للسنة وكذا فإنه بصرف النظر عن طبيعة نظام الحكم في مصر وتوجهاته فإن غياب مصر عن الساحة الإقليمية هو لمصلحة النظام الإيراني .

ولكن إيران وهذا جزء من تكوينها الداخلي، تقسم السلطة في داخلها إلى مواقع متعددة تتحرك كل منها بمفردها في إطار تنسيق غير منظور فهناك المرشد وهناك الرئيس وهناك المخابرات، وهناك الحرس الثوري، وهناك الملالي، وكل ملا له ميزانيته ومواقفه، وهذا يأخذ موقفاً، والآخر يعاكسه فيمكن للرئيس أو وزير الخارجية أن يأخذ موقفاً يعارض موقف الحرس الثوري أو المرشد ... إلخ، وهذا ليس أمراً خاصاً بإيران وحدها، فهذا يحدث في إسرائيل وأمريكا فالخارجية ضد المخابرات مثلاً والرئيس ضد الكونجرس أو مختلف عنه، وهذه لعبة تلعبها الدول ذات الطابع المؤسسي، إلا أن إيران تفوقت في هذا الصدد بشكل يثير الدهشة .

وكذا فإن حسابات إيران الإقليمية تقتضي التمسك بورقة حماس، لأن حماس تفيد إيران أكثر مما تفيد إيران حماس،

صحيح أن إيران تدعم حماس مادياً بالمال والسلاح، ولكن حماس ورقة سنية في مصلحة الإيرانيين ولعلنا ندرك هذا التناقض في المواقف الإيرانية، إذا أدركنا مثلاً أن إيران تدعم بكل قوة ومال وسلاح وبشر ودبلوماسية نظام بشار الأسد، ومن المعروف أن الإخوان المسلمين في سوريا والعالم يناضلون ضد بشار الأسد، وهم من أهم قطاعات المقاومة لبشار، وهذا بالطبع يغضب إيران، ولكن إيران تعلمت أو اكتسبت خبرات تجعلها تقسم الأوراق وتدفع من يدافع عن الإخوان المسلمين مثلاً أو يدافع عن قضايا السنة لأسباب تكتيكية، بل إن الإيرانيين وصلوا من الدهاء بحيث أقاموا علاقات مع بعض عناصر القاعدة ودعموها لأسباب معينة، وفي يوم من الأيام كان بعض قيادات القاعدة موجودين في إيران، وهناك دعم مادي لبعض مؤيدي القاعدة في العراق أو سوريا كورقة ضد أمريكا أولاً، ثم لكي تستخدمهم إيران ضد مصلحة وسمعة المشروع المناهض لبشار في سوريا ربما تكون "دالمن" نموذجاً لهذا الأمر، والله أعلم طبعاً.

لكن في كل الحالات فإن فهم الموقف الإيراني من أي قضية يجب أن يأخذ في اعتباره أن هناك تقسيم أدوار حقيقي متعمد أحياناً وغير متعمد أحياناً أخرى ولكن لمصلحة المشروع الإيراني في النهاية..

عاجل إلى الحركة الإسلامية في مصر

هذه المرة الرابعة التي أكتب لكم فيها رؤيتي أو نصائحي مع الأخذ في الاعتبار دائماً أنه رأي فيه صواب وخطأ وخطأ وصواب وعلى حد قول الإمام الشافعي رضي الله عنه قولنا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

كانت المرة الأولى في منتصف الثمانينيات، وأصدرت كتاب بعنوان عاجل إلى الحركة الإسلامية، ونشرته على حلقات في إحدى الصحف. وكان به الكثير مما كررته بعد ذلك عن ضرورة أن تكون الحركة طليعة للأمة وليس بديلاً عنها، وأن على الحركة أن تعرف من هي، وماذا تريد، وعلى أي أرضية تتحرك، وكذا كان فيه رأياً بضرورة التخلي تماماً عن منهج العنف لأنه غير صحيح أولاً، ولأنه لا يلائم مصر ثانياً، وغيرها من الأمور والقضايا التي لم يستوعبها أحد للأسف حتى هذه اللحظة، وكانت المرة الثانية بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ حيث طرحت مجموعة من القضايا حول ضرورة التخلي عن فكرة التكفير، واعتماد النضال السياسي، وأن الشعب المصري والشعوب الإسلامية، كانت ولا تزال وستظل مسلمة، وأنها لم تخرج من دينها، بل ربما كانت سلوكيات العوام من المسلمين أفضل من بعض الإسلاميين، ومن ثم يجب الاعتماد على الشعب نفسه وليس التنظيم

. وفي المرة الثالثة كانت عقب تولي الدكتور مرسي رئاسة الجمهورية في ٢٠١٢ حذرت مما سميته الطبخة المسمومة، وأن عدم الاهتمام بقضايا الحريات والعدالة الاجتماعية، وضرورة حل كل التنظيمات السياسية الإسلامية فوراً، والتعامل مع الشعب كله باعتباره ممثلا للتيار الإسلامي، لأن مصر كانت ولا تزال وستظل إسلامية، وأنه حتى المسيحيون المصريون فهم ينتمون إلى الثقافة والحضارة الإسلامية ثم أعقبت ذلك بمقال بعنوان من السيد إلى الأجير رسالة إلى الرئيس مرسي، وكذا مقالات آخرى يمكن مراجعتها فيها استقراء لكل ما حدث بعد ذلك ليس رجماً بالغيب حاشا الله ولكن الرؤية المنهجية المتجردة تقود حتماً إلى الاستنتاج الصحيح، خاصة في مقال بعنوان تحديات مرحلة بدء التمكين .

هذه إذن الرسالة الرابعة إلى أبناء الحركة الإسلامية، أكرر فيها بعض ما قلته من قبل وأضيف إليه إن شاء الله .

- هذه الأمة لم ولن تكفر بإذن الله، ومن قال هلك الناس فهو أهلكهم وتكفير الناس أمر غير صحيح شرعاً وهو نوع من العجز الفكري والسياسي ونوع من التغطية على الأسباب الحقيقية للفشل .

- من حقكم أن تنتقدوا الممارسات القمعية ومصادرة الشرعية ولكن هذا لا يمنع من البحث عن الخلل في أدائنا الذي أدى إلى ذلك، لأن فكرة المؤامرة كانت موجودة منذ حياة الرسول وحتى اليوم وإلى يوم القيامة، فتفسير الأمور بمنطق نظرية المؤامرة لا يجدي، لأن المؤامرة ما كانت لتنجح لولا أخطاء وخلل في داخلنا.

- لا بد من تقديم رؤى وأطروحات فوراً حول سياساتنا إذا ما عدنا إلى الحكم عاجلاً أم آجلاً . هل سننحاز إلى الفقراء والمستضعفين، هل سنأخذ فضول أموال الأغنياء فنردها إلى الفقراء، هل سنسحب اعترافنا مثلاً بدولة أمريكا التي قامت على إبادة شعب آخر هو الهنود الحمر واسترقاق السود، وقتلت الملايين في العراق وأفغانستان والصومال وفلسطين، هل سنسحب اعتراف مصر بدولة إسرائيل اللقيطة وغير الشرعية، هل سندعم كل جهود الناس من أجل التحرر الوطني والعدالة الاجتماعية والاستقلال الوطني، أم سنقول إن ذلك سيتم بعد أن نتمكن من السلطة !!! وهي رؤية تقلب الأمور على رأسها، لأنه لا يمكن إلا بالكفاح من أجل تحرير فلسطين، ومواجهة الرأسمالية الأمريكية والمحلية والخروج من السوق الرأسمالي العالمي، وإنصاف الفقراء .

- هل سيقوم أغنياء التيار الإسلامي بعمل مؤاخاة مع فقراء الشعب المصري، كما فعل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب هجرته إلى المدينة، حيث تآخى

كل اثنين من المسلمين واقتسموا المال بل حتى الزوجات ! .

- هل سنعتبر كل الشعب هم التيار الإسلامي وأننا مجرد طليعة لهم أو خميرة في اللبن لتحويله إلى زبادي، لأن ترك الخميرة بعيداً عن اللبن، يعني فساد اللبن والخميرة معاً، وبلغة أكثر قسوة، لو نشطت خلايا في الجسم بمعزل عن الجسم ستصبح ورماً، أما لو نشطت باقي خلايا الجسم فإن النتيجة نشاط الجسم كله .

- لا تتصوروا أن الشعب في مصر يرفض المشروع الإسلامي، فمصر كانت ولا تزال وستظل إسلامية وكل ما في الأمر أن هناك قطاعات من الشعب ترفض أطروحتكم وفهمكم للمشروع الإسلامي، وهذا من حقهم، دون أن يكون موقفهم هذا صحيحاً أو خاطئاً، وبديهي أنكم لستم معصومين من الخطأ، وأن أطروحة الإسلاميين الحاليين يمكن أن تكون صواباً به خطأ أو خطأ به صواب .

- إذا تعاليتم على الوجدان الشعبي، فلا تلوموا إلا أنفسكم .

- يجب أن تسألوا أنفسكم السؤال التقليدي، من أنتم وماذا تريدون وعلى أي أرضية تتحركون وبالنسبة لي أرى أننا حركة تحرر وطني، ضد أمريكا وإسرائيل وضد الرأسماليين وضد الاستبداد والحكم العسكري وأنه إذا تعارضت السلطة مع تحقيق هذه الأهداف فإنه لا حاجة لنا بالسلطة، وأن العالم ينتظرنا لتقديم المشروع الإسلامي كأيديولوجية للفقراء والمستضعفين في العالم، باعتبار المشروع الإسلامي هو الجذر الثقافي الصالح عالمياً للنضال ضد الرأسمالية والاستكبار الأمريكي والصهيوني .

- إذا لم تكونوا طليعة وليس بديلاً في مواجهة أمريكا وإسرائيل والرأسمالية والاستبداد فأرجوكم أن ترحمونا وترحموا المشروع الإسلامي وترحموا مصر والعالم العربي والإسلامي من ضيق أفقكم وإلا فإن الله لن يغفر لكم ذلك .. لأن المسئولية الإسلامية والأخلاقية والتاريخية كبيرة .

وألفت نظركم إلى نصائح ابن القيم للعلماء في رسالة إعلام الموقعين عن رب العالمين لأنه يقول للعلماء هنا مسئوليتكم مضاعفة، لأن من المفروض أنكم توقعون عن رب العالمين .

والله تعالى أعلم .

تطور في خطاب الإسلاميين

إذا كان من المهم تحليل مضمون شعارات وخطاب الإسلاميين في أي مرحلة من المراحل، لإدراك طبيعة هذا الخطاب وأهدافه، والاستدلال منه على التطور الإيجابي أو السلبي في هذا الخطاب، فإن من المهم جداً رصد هذا الخطاب في الآونة الأخيرة، وتحليل مضمونه لإدراك على أية أرضية أصبحنا وهل نحن نسير إلى الأمام أم إلى الخلف .

خواطر مسلم

بداية من الضروري أن نرصد أن الحديث مثلاً عن ثورة إسلامية لم يكن موجوداً في خطاب الإسلاميين قبل وبعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ المجيدة، بل إن كلمة ثورة ذاتها لم تكن مرحبًا بها في أوساط الإسلاميين على أساس أنها بدعة مثلاً، أو مرفوضة شرعياً أو غيرها، وأن الإسلاميين في معظمهم ليسوا ثوريين بل إصلاحيين فقط . ولكن دخول مصطلح الثورة الإسلامية ظهر بوضوح في شعارات الإسلاميين، خاصة بعد ٢٠١٣/٨/٣٠، وكان عنواناً لفاعليات الإسلاميين في هذا اليوم، وهو تطور نوعي كبير جداً، شريطة ألا يكون نوع من التكتيك السياسي لمخاطبة قطاع من الجمهور المصري، أو حشد الشعب المصري فقط بدون إيمان حقيقي بهذا المصطلح، أو كان محاولة لمعاقبة المسيحيين في مصر على مواقفهم من حكم الإسلاميين، فإن كانت المسألة تطور حقيقي في وعي وفهم وسلوك الإسلاميين، فإن للأمر ما بعده، وإن كان محاولة كاذبة أو تكتيكية فإنه نوع من الزيف لا يرضاه الله ورسوله والمؤمنون .

في ذات السياق تأتي تطورات من نوع أن الإسلاميين يريدون خلافة إسلامية على نهج النبوة مصداقاً للحديث الشريف المعروف، فهو تطور نوعي مهم جداً، صحيح أن ذلك المفهوم ساهم فيه الهجوم العلماني والمعادي للإسلاميين بأن الإسلاميين ليسوا وطنيين وأنهم دعاة خلافة بما يتعارض مع المصالح الوطنية، ولكنه أصبح موجوداً بالفعل لدى قطاعات الإسلاميين، فإن كان ذلك نوعًا من الهروب إلى الأمام وليس شعاراً حقيقياً فهو تطور كاذب، وإن كان الإسلاميون قد أدركوا أنه أمر أساسي في المشروع الإسلامي فهو تطور إيجابي جداً، شريطة أن يتم تحديد تصور للوصول إلى هذا الهدف، وإدراك أن التمسك به لا يغني عن إدراك أن تحقيقه لن يكون بالإمساك بسلطة في قطر ما، ثم الوقوع في آليات الدولة والسلطة وتنفيذ كل ما هو عكس هذا التوجه، بمعنى تقوية الدولة وليس المجتمع، ومن ثم فإن هذا الهدف لا يمكن إدراكه أو البدء في السير على طريقه إلا بظروف إقليمية ودولية معينة مازالت شروطها غير متيسرة، وهذا لا يعني التخلي عن الشعار طبعاً وكذلك لا يتحقق البدء في السير على هذا الطريق إلا بتقوية المجتمع على حساب الدولة وإدراك ما هو إقليمي وما هو محلي وهكذا فإن هذا الشعار له شروط موضوعية يجب البحث فيها وحولها، والاجتهاد في إطار عدم الإضرار بالحالة الإسلامية شعبياً، وبذل أقصى الجهد في شرحه وتبريره وإدراك معناه على المستوى الشعبي .

في نفس الإطار يأتي التطور المهم في

استبدال شعار الإسلام هو الحل .. إلى شعار الجهاد هو الحل، وهذا يعني لو كان شعاراً حقيقياً وليس نوع من التكتيك أو محاولة لدمج قطاعات الجهاديين من مختلف الأصناف تحت لواء الإصلاحيين، أننا أدركنا أن الشعوب مازالت مسلمة، وأن الإسلام لم يغب عن واقع الناس ولكن الجهاد هو الذي غاب، ولتقريب هذا المعنى يمكن أن نضرب مثلاً أن أحد الناس شعر بالمرض، فذهب إلى طبيب وقال له الطبيب بعد أن فحصه أنه يحتاج إلى بروتين، فقال الرجل إنني أتناول لحوماً وأسماكاً وألباناً، فكيف يكون هناك نقص في البروتين، ومن ثم فالتشخيص الطبي هنا غير دقيق، وربما

يكون هناك نقص في فيتامين "د" أو عنصراً مثل الكالسيوم أو الفسفور ... إلخ .

صحيح أن البروتين مهم جداً ولكنه غير ناقص في الجسم، ومن ثم فإن "الجهاد هو الحل" هو نوع من التشخيص الصحيح، ولا يعني هذا التقليل من قيمة البروتين، الصحيح أن الإسلام لم يغب عن الناس، وأنهم متمسكون به وهذا يعني رفض وتسخيف فكرة التكفير، وأن الذي غاب هو الجهاد، شريطة طبعاً أن يكون الجهاد ضد عدو الأمة إسرائيل ثم أمريكا، فمن أراد أن يجاهد فليجاهد ضد أمريكا وإسرائيل وليس ضد بعضنا بعضاً، وأن يلتزم في هذا الجهاد بأخلاقيات معينة، وأن يكون هناك حساب سياسي دقيق في تلك الممارسة، وإلا تحول الجهاد إلى عبء جديد وطفولة إسلامية وحماقة ومراهقة، فيأتي بعكس المطلوب منه على طوال الخط.

في التطور هناك نوع من رد الفعل غير الصحي تماماً وهو بدء بعض الإسلاميين في تكفير بعض قطاعات المسلمين، كالجيش والشرطة أو القضاء أو الإعلام أو غيرها، ومهما كانت ممارسات هؤلاء فإن التكفير له شروط أخرى، ولا ينبغي أن يكون رد الفعل طفولياً أو انفعالياً أو غير محسوب بدقة .

والله تعالى أعلم .

د. محمد مورو

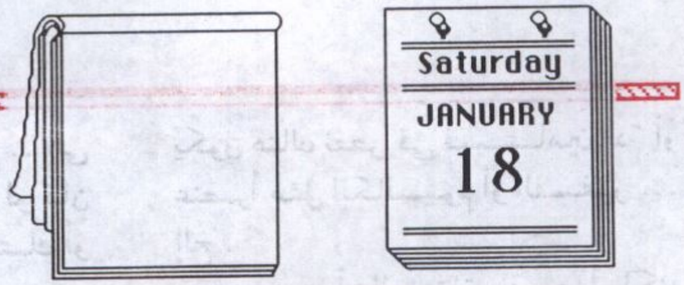

شهريـــــات

رسالة أميركا

مزراب الأموال المهاجرة

رغم انحصار موجة هجرة الأدمغة وانفضاض عهد تسرب العقول وانفتاح مزراب جديد تتسرب منه القوى العاملة وبريخ مبتكر تدفع منه الثروات القومية من داخل الأوطان إلى مصارف لا يدرك أحد منتهاها ، ورغم حالة الزهد الشاملة فى العلم والمعرفة والابتكار ، وانشغال الدول بالكسب السريع وحيلة سلب بعضها البعض وأعمال النهب ممن يقع تحت طائلة ذو السطلة فيها ، إلا أن النقاش مازال يجرى حادا ساخنا عن الأذكياء والمبتكرين الذين تستدرجهم البلاد الصناعية الكبرى فتحرم منهم أوطانهم التى هى أحق بملكاتهم وبما تتفتق عنه عقولهم من اختراعات وتقنيات تفيد البشرية عامة ، وتدفع أهل بلادهم على وجه الخصوص ، فكما يقال إن "جحا أولى بلحم ثوره" فالواقع أن هناك حالة عزوف تام عن العلم والعلماء عمت دول العالم كله كبيرها وصغيرها أعظمها وأدناها رغم كثرة اللغط فى العديد من تلك الدول عن رعاية الموهوبين والحفاوة بأهل المعرفة .

ومن الغريب أن بعد زهاء ربع قرن من انحسار موجة نزوح العقول النابضة بالذكاء والكفاءات العلمية المشتعلة بالرغبة فى الابتكار إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا من الدول "نامية والمتنامية بدأت أنشطة الندوات والمؤتمرات والدراسات لبحث المعضلة وأسبابها وإرهاصاتها والسعى للحد منها .

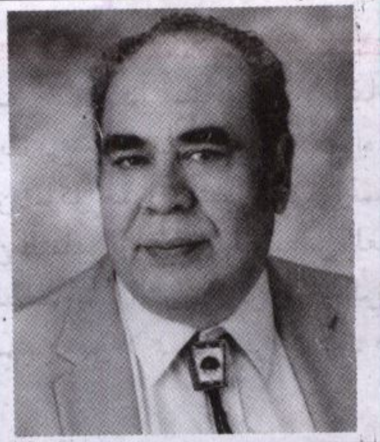

د.عبد الفتاح الحسينى

والأغرب من ذلك هو التغاضى عن ذكر مشكلة قائمة من عقود مضت وهى استئصال الشعور بالانتماء إلى أرض أو موطن تمهيدا لبركان العولمة الذى سيقضى على معالم المعمورة وعلى ملامح الشعوب وخصوصياتها كما أن المؤتمرات تغافلت وما فتئت تتفادى مواضيع الساعة من نزوح القوى القومية العاملة وتسرب الزكائب المالية المتخمة بالثروات القومية دون عودة مرتقبة .

وبعيدا عن التخرصات التى تحيط بالموضوع فإن البلاد التى فاتها قطار التقنية الحديثة لم يعد يعنيها من ولى أو أدبر من أبنائها ، والذى يريد تملك عقل موهوب من أبنائها فليشبع به والذى يسعى إلى إغراء عالم من علمائها فليبله وليشرب ماءه فما هؤلاء إلا عالة على الاقتصاد القومى للبلاد .. فتلك الدول لا تصبو لمجد علمى ولا تتطلع إلى عظمة تاريخية وإنما هى تسعى بلهفة إلى الانجراف مع طوفان الانتعاش المالى الذى يقوض اقتصاديات الشعوب والتعلق بأهداب الستائر الحضارية التى تخفى وراءها ألوانا مستحدثة من الهمجية حيث استبدلت أنياب الوحوش الضارية بأشعة الليزر التى تنهش فى الحجر الصلد وتصهر الحديد والصلب .

مخلفات الحرب

تمخضت الحرب العالمية الثانية عن جيل لم ينقرض بعد من أغنياء الحرب الذين نمت ثرواتهم بالاتجار مع طواغيت التدمير الذين خربوا المعمورة وحمامات السلام التى رفرفت على رءوس البشر ترميهم بوابل من الزبل وتحجب عنهم أضواء الشمس بعد أن تدنسهم بالبول .. أولئك الأغنياء أثروا لأنهم يبيعون لكل من يشترى، لا يضيرهم إن كان عدوا أو حليفا ، ويحصلون على البضائع من كل من يبيع بعضهم بمثابة السماسرة لا ينتجون ولا يصنعون ولا يخزنون البضائع وإنما يسعون بين البائع والمشترى لقاء عمولة وبعضهم كمثل القواد يفرض إتاوة على كل ما يجرى فى سوق البغاء .. وهم يوردون المحارب والنعش والمقبرة والفأس الذى يحفر القبور ويزفون إلى المقبرة من يشيع الضحية ويصلى عليها ، ويمولون السلاح والطعام واللباس والشراب، ويبيعون الكلام والشعارات لمن يعوزه

لسان .. وينقضون كالطيور الجارحة على غنائمهم عندما تلح الحاجة فيغالون فى الأسعار ويسعون إلى احتكار أرزاق الخلق ويغبنون الناس حقوقهم .. شغلهم الشاغل هو جمع المال لا يضيرهم مصدره ولا يتورعون عن أكل أموال الناس بالباطل .

كما أن الولايات المتحدة الأمريكية تمتعت بفترة من الرخاء عقب انفضاض الحرب، ذلك لبعدها عن مواقع المعارك الدائرة أثناء اشتعال النيران ولجهدها فى مد حلفائها بالوقود الذى أخمد النار، إذ لا يحد من انتشار اللهب وتفشى النيران فى الغابة إلا إحاطتها بطوق من اللهيب المشتعل .

لذلك فإن كل من تمعن فى أحداث التاريخ الحقيقى واستقى العبرات وجد أن أسرع سبل الإثراء هى تمويل الحروب والتجارة مع جميع الأطراف المتنازعة، أو إشعال الحرب بعيدا عن الديار وتزويد المتحاربين بالمؤن والعتاد .

لهذا فإن المنافسة الجارية بين الدول العظمى بعد مرور قرابة نصف قرن على الحرب العالمية تتمركز على التسابق فى سوق السلاح ومد يد العون الخيرى والنجدة الإنسانية إلى ضحايا الحروب المشتعلة فى كل مكان بالطعام والكساء والدواء حتى يطول باعهم وتتلاحق أنفاسهم فلا يملوا القتال مع جار، وتشتد سواعدهم فيبدأوا معارك جديدة كلما خمدت نيران حرب ..

والمنافسة تشمل توريد الجديد من أدوات القمع حتى لا تصدأ أسلحة إخماد أنفاس الشعوب فى جرابها، وتزويد الأفواه بما يتخم من المأكل حتى تكتظ البطون وتمسك الرئة عن التنفس ويشكو الجسد من العلل فيزيد الطلب على الدواء الذى ينشر الوباء والعقم بين من لا يملك قرار المزيد من الشراء .

هجرة الزكائب المالية

كذلك أثرت بعض الدول وعلى رأسها سويسرا من حيادها إبان الحرب العالمية حيث هرَّب إليها الأموال كل من سعى إلى السلطة أو ترك السلطة، وكل من انتصر أو انهزم، وكل من تجبر أو استسلم، وكل من ثأر أو انقلب على عقبيه .

لهذا قامت حركات الحياد الإيجابى وتكونت دول عدم الانحياز طمعا فى اقتناص أموال الفارين من عروش تقوضت، وإيواء الثائرين على أنظمة قائمة حتى يمكن مشاركتهم فى نهب إيرادات ثوراتهم من الأموال التى تمولهم وتعضيد تجمعات مقاومة همها جمع المال من كل من اشتعلت نفسه بالحماس فسلم ثروته دون مقاومة .. غير أن اللعبة كانت ساذجة إذ عجزت أيديهم عن تصريف الأموال المختلسة وضاقت الخزائن بالمال فلجأ أهل الحياد ممن عازهم الذكاء إلى تهريب أموالهم إلى البنوك المحترفة فى الدول الأكثر حيادا .

وهكذا تم تأسيس بنوك خاصة بالأموال

المهربة، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وهكذا شهدت نهاية القرن الماضى حدة التسابق على فتح المصارف المالية المتخصصة فى خزن أموال كل من خاف على عمره من ناسه فسلبهم أقواتهم تأمينا لمستقبل لن يراه، وكل من تاجر فى سلع الحروب والقلاقل والمناوشات ودس الطعام فى أفواه المدافع، وكل من امتدت يده الطويلة إلى مال عام ليس من حقه بذريعة أنه مؤتمن على خزائنه .

ولم تعد المراكز المالية التى توارى سوءات اللصوص وقطاع الطرق وحاملى السيوف والحراب حكرا على سويسرا فدخل فى سوق البنوك دوقيات وإمارات صغيرة فى أوروبا مثل إمارة لينكستين وجزر فى البحر الكاريبى مثل الجراند كيمان .

وفاقت البنوك الجديدة المصارف القديمة فى المقدرة على كتمان هوية المودع والتفنن فى صيانة سرية أرقام الحسابات حتى إن أصحاب الأموال المهربة جهلوا أرقام حسابهم .. وانشغل مهربو الأموال بجمع كل ما تقع عليه أيديهم الطويلة من ثروات الشعوب وشَغلهم جشعهم عن رعاية ما اكتنزوا فازداد ثراء البنوك المودعة سرا لاستحالة سحب مـ أودع فى خزائنها خاصة وأن مصير العديد من أصحاب الثروات المهربة إما القتل أو أن ينفق كالبهيم فى حضيرته بعيدا عما اختزن من علف.

ولم تكن بنوك الدول الكبرى لتحجم عن التنافس فى سوق المال النازح عن أرضه فتكونت بنوك عالمية وفتحت بنوك نيويورك ولندن وباريس وتل أبيب أبوابها على مصراعيها للمودعين الأجانب دون سؤال عن مصدر المال رغم أنها لا تقبل إيداع أموال مشبوهة أو مغفلة الهوية من المواطنين .

وأصبح مهربو الأموال أكثر جرأة بعد أن توطدت قواعدهم فى البلاد التى نهبوها بتعضيد من الدول التى تنشئ البنوك، وبطبيعة الحال لم يعد هناك حاجة لمشقة الأرقام السرية فمودع المال لا يقدر على سحب ما أودع إذا تعارض ذلك مع سياسة الدولة المؤتمنة على الأموال، وما كان لودائع مغتصبة أن تكمن آمنة فى خزائن من فولاذ وحامل المفاتيح يدرى أن الأموال ليست ملكا للمودع حتى لو صح القول بأن اللص خير من يؤتمن على المال المسروق.

قال تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض، إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد

منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون، فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾

...... (القصص : الآية ٧٦ - ٨٢).

دول غنية لشعوب معدمة

من عجائب الحياة المعاصرة أن أكثر الدول غنى بالمصادر الطبيعية والثروات البشرية هى أكثرها ترديا فى الفقر، مثالا لذلك دول أمريكا الجنوبية أو أمريكا اللاتينية، فالمكسيك مثلا من أكبر الدول المصدرة للنفط فى العالم حيث تعمل جلة الشعب فى ضخ النفط وتكريره وشحنه ويلقى العديد من الناس حتفهم فى عمليات الحفريات وتنفس الغاز واستنشاق العادمات الملوثة للهواء وتجرع المياه الملوثة بنفايات النفط وغيره من عمليات الحفر والتنقيب .. كما أن البلاد حافلة بمصانع السيارات التى يستحيل على القائم على تصنيعها من شرائها فتصدر غالبيتها إن لم يكن كلها إلى الخارج، كما أن هناك صناعات عديدة أخرى منها صناعة الحلى والأثاث والملابس والإنتاج الزراعى الضخم الذى يتم شحنه إلى الشمال .. ورغم كل هذا فالشعب المكسيكى يعانى الفقر المدقع وغالبيته لا يملك من الطعام والملبس ما يتعدى مستوى العدم .

والمحظوظ منهم هو الذى يستطيع الفرار عبر الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية لينضم إلى قوافل عمال التراحيل التى تجنى المحاصيل الزراعية لقاء الكاد من المأكل والماء القراح، وسعيدة الطالع منهم التى تلتحق بما يسمى "دكاكين العرق" حيث تقوم بحياكة الملابس لقاء دراهم معدودة لا تكفى قوت يومها .

وعلى الخير منهم أن يشد حزام البطن ليرسل إلى عائلته البعض من القليل الذى يكسب بعرق ساعات من العمل الشاق المتواصل حتى يتكفل بأهله فلا ينفقون من الجوع ولا يفتك البرد والوحوش الضارية بأجسامهم الملفوفة بالخرق البالية .

ورغم أن الفارين عبر الحدود من أرض العوز والحاجة يعانون ضيق العيش ومرارة الغربة والحرمان من الأهل والولد فإن الآلاف منهم يعرضون حياتهم للخطر بالتسلل ليلا عبر الحدود وكثير منهم يموت أو يُقتل قبل أن تطأ قدماه أرض الميعاد حيث يعيش حياة خوف وهلع تطارده السلطات لدخوله البلاد دون تصريح ..

كما يدفع المتسرب من الجنوب مبالغ كبيرة إلى من يهربه عبر الحدود معرضا نفسه لمخاطر أقلها الحبس فى السجون وضياع ما دفعه إذا لم يمت فى الطريق من الجوع أو العطش .. إن كان هذا هو الحال العامة من الناس فأين ذهبت المليارات من الدولارات العائدة من تصدير النفط والمنتجات الزراعية والصناعية ؟..

الجواب على هذا التساؤل المنطقى هين على من تضخمت خزائنه من عرق العامل الكادح ومن دم من التهم قوته ترس ماكينة ووقع فريسة السندان والمطرقة، والجواب مفحم لكل من رضى بالهوان وألف ضيق الحال وسوء المآل .

فمن الأعذار الدارجة أن تعداد السكان فى تزايد مطرد وأن عدد الأفواه المتلهفة للمأكل والأجساد العارية التى يلزم سترها والأجسام المريضة التى يجب علاجها من سقامها لا يكفيها كنوز الأرض كلها حتى لو اجتمعت فى خزينة مال البلد .. كما أن الدولة عليها ديون هائلة لا تقوى على تسديدها من السنين العجاف التى مرت بالبلاد فى العهود السابقة من التسيب وقلة الصادرات وسوء الحالة الاقتصادية والفساد الذى استشرى بين من كان فى يدهم مقاليد الأمور .. ثم إن الدولة تنفق أموالا طائلة على مشاريع استثمارية لتنمية الحالة الاقتصادية حتى يصبح المستقبل ورديا للأجيال المقبلة ..

أما الجواب الصحيح على مثل هذا التساؤل فبسيط غير معقد، لكنه يكمن فى خزائن البنوك فى نيويورك حيث تورد مدفوعات صادرات المكسيك يوميا إلى خزائن مغلقة عليها أقفال لا تمسها يد العابثين بالأموال من الشعب، وإنما تحرسها كلاب استأمنهم الشعب على ثروته .. وأما تكاليف العمال والإنتاج فى المكسيك فتتكفل بها الديون المرجأة والقروض التى كثيرا ما يصدر قرار دولى بمعافاة المكسيك من دفعها بهذا فالناس تشقى وتكدح لتصدر الدولة المنتجات دون أن يعود عليها من العمل أو الصادرات غير المزيد من الشقاء والكدح .

ذنب من ؟

إدعاء أن الحفاظ على دخل الدولة من المساعدات والمعونات وإيراد الصادرات لا يتحقق إلا بإيداعها بعيدا عن متناول الشعوب أمر ألفته أمم كثيرة .. فإن الشعوب ليست على وعى كاف بما فيه صلاحها ورخاؤها والعمل على ادخار القرش الأبيض لليوم الأسود الممطر .

وإذا كان الناس على غفلة من رعاية مصالحهم فعلى ولاة أمورها حمايتهم من تخريب المغرضين وفساد المضللين والساطين على ثروات الأمة .

وقد سن هذه السنة زعيم غابر بعد هزيمة مخزية إذ أودع ما تبرع به أهل الخير من مال لإصلاح ما تدمر من مصالح الناس فى حسابه الخاص فى بنوك سويسرا خوفا

من الأيدى المخربة والضمائر الانتهازية المضادة لرقى شعبه أن تعبث بالأموال وتحرم الناس منها .

وبالطبع لا أحد يدرى مصير الملايين التى تكدست فربما آلت الأموال لورثة الزعيم عندما نفق وربما دفعتها بنوك سويسرا تعويضات لضحايا النازية من اليهود، وعلى كل فمصير أموال التبرعات واحد فى كلتا الحالتين .

ومثل آخر الأرجنتين التى تورد لحوم الأبقار المعلبة وغيرها لأنحاء العالم منذ بداية القرن العشرين ورغم هذا فإن المجاعات فى الأرجنتين والموت من الجوع اعتاد عليه الناس والعبرة الأكبر فى البرازيل التى تقوض شركات الأدوية غاباتها لاستخلاص العقاقير والتى تصدر كما هائلا من الدواجن لإطعام الشعوب الأخرى ولا يعود على الناس من كل هذا إلا الفقر والضياع، أما الفليبين فكانت تؤجر أرضها لقاعدة أمريكية على أن يُدفع الإيجار لحساب فرناندوز وزوجته فى مصارف نيويورك، فمصروفات العائلة المترنسة هائلة ولا تكاد تسد من احتياجاتها واردات المال السنوية للبلاد .

هجرة رءوس الأموال

تنافس الدول فى سوق تجارة المال حدا ببعضها إلى سن قوانين لتشجيع هجرة رؤوس الأموال إليها، فسويسرا تمنح الجنسية السويسرية لكل من بنى بيتا أو أسس مصنعا حتى إن لم تطأ قدماه أرضها .. وليس غريبا أن يحصل على الجنسية من يودع ما اكتنز من مال اقترفه فى بنوكها على أن لا تُمس الوديعة لزمن طويل .

وسرعان ما انتهجت دول أخرى مثل ذلك النهج فى سياستها الاستيطانية، فكندا مثلا منحت الجنسية لأساطين التجارة والمال فى هونج كونج الذين كانوا يخشون مغبة انتقال ملكية بلادهم من بريطانيا إلى الصين .

ومازالت الجنسية الكندية معروضة للبيع لكل من أودع فى بنوكها العديد من الملايين .. ولا يتطلب ذلك أن يقوم المتجنس بزيارة كندا فسبل نقل المال من دولة إلى دولة لم تعد قاصرة على تهريب الذهب أو حقائب الأموال عبر الحدود .

ومن فترة قريبة قامت الولايات المتحدة الأمريكية بمنح الإقامة الدائمة لكل من يستثمر استثمارا رئيسيا فى تكوين شركة أمريكية جديدة أو إنعاش شركة قائمة .

دارت الرحى

قفزات التطور فى تقنية التصميم والتصنيع خلال القرن المنفلت أدت إلى تحول جذرى فى سوق العمالة خاصة فى بداية العقد المنصرم، إذ أدت ظاهرة الاستغناء عن المهارات الحرفية والهندسية التى عمت البلاد الصناعيه إلى ازدياد الحاجة إلى أجسام مقتدرة على الأعمال

المرهقة لساعات طويلة لمزاولة المهن الدنيا التى لا يعوزها غير ساعد متين لا يجهده الرفع والخفض أو قدم لا يمل الوقوف ولا ترهقه طول ساعات العمل لتحل محل العقول المفكرة القادرة على الابتكار .. هذا لأن التقنية بلغت المستوى الذى كانت ترنو إليه أنظار شركات الإنتاج وحان الوقت لها أن تحصد ثمار استثماراتها فى البحث والتطوير وتركز جهدها على جنى الأرباح الهائلة خاصة بعد أن طوت القبور رفات مؤسسو الشركات وسيطر على الشركات المحاسبون والمرابون وأصحاب الأموال فبدلا من السعى وراء ما هو جديد فى التقنية لزم بيع ما تمخضت عليه التقنية السالفة من منتجات وبدلا من تطوير المنتجات إلى أفضل أصبح من الأجدى تغيير غلافها وتعديل شكلها أو تزويق سطحها وتنميقها حتى يتدافع على شرائها المستهلكون خاصة الذين لا يضيرهم المخبر إذا ما خلبهم المظهر .

واستشرت ظاهرة الربح السريع والدأب على الفحش فى تراكم الأرباح حتى شملت المستشفيات فتحولت المؤسسات الطبية إلى مراكز ربح بدلا من مواطن علاج ورعاية صحية وتم إلغاء منصب كبير الأطباء كمسئول يرجع إليه العاملون فى المستشفيات ويشرف على جودة الممارسة الطبية ليحل محله كبير الموظفين وهو دور يقوم به شخص لا علم له بالطب لكنه يتقن إحصاء النقود والعمل على تضخيم حجم الأرباح .

مع هذا التغير أوصدت أبوابها الوظائف المجزية والمناصب التى تقتضى قدرا من الذكاء بينما فتحت أسواق العمالة مصراعيها للقائم بتقليب هامبرجر (من لحم لا يصلح لاستهلاك الآدميين) على النار، وللنادل الذى يقدم المشروبات على المقاهى وفى المنتديات والخمارات، ولحرس المبانى والقائمين على تنظيفها، ولكل من لا يتقاضى لقاء خدماته إلا دراهم قليلة لا تكفى حاجة معيشته .

لهذا فقد كان غريبا أن تعلن الحكومة الأمريكية انخفاض معدل البطالة فى الولايات المتحدة الأمريكية فى نفس الوقت التى استغنت فيه الشركات والمصانع عن خدمات آلاف المهندسين والخبراء وتخلصت الجامعات من العديد من الأساتذة وأغلقت أبوابها عشرات من مراكز البحوث .. إلا أن الحكومة كانت صادقة فقد تكاثرت الأعمال الدنيا إذ ازدهرت محال الأطعمة السريعة وانتشرت أندية القمار حتى دخلت كل حى بعد أن اقتصرت على مدن ثلاث فى القارة كلها .

كما تحولت شركات مثل شركة جنرال اليكتريك إلى مصرف مالى للقروض والتمويل بعد أن نفضت عن كاهلها أئمة الابتكار والخبراء فى العلوم والهندسة وباعت أبنيتها لصالات القمار ومحلات الأطعمة الجاهزة وأعارت اسمها لشركات

أجنبية لتبيع ما اشتهرت به من معدات كهربائية .

هكذا دارت الدائرة فتحول أصحاب المؤهلات العالية إلى البحث عن أعمال مجزية فى دول أخرى، والمحظوظ منهم من يستطيع تسويق نفسه لدولة نامية على أنه خبير ليس على خبرته أحد .. ولجأ البعض إلى العمل فى سوق المال حيث يباع الدولار بدولار ونصف .. والكثير أبى أن يحط من قدر نفسه فيشتغل فى الأعمال المتاحة فى قطاع جديد أطلق عليه من باب المواربة اسم "صناعة الخدمات" وإن كان الأحرى به أن يسمى "قطاع تجارة القوى البشرية الرخيصة" لأن القطاع لا يصنع شيئا ولا يؤهل أحدا لحرفة .

لم يعد حلم الصبى الأمريكى أن يكون عالم ذرة أو مهندسًا معماريًا أو مدرسا أو كاتبا، بل أصاب الجيل الجديد الوهن وحب الكسب السريع فعزف الكثير عن التعليم ولو لم يكن التعليم الابتدائى والثانوى إجباريا ما شغل أحد باله بالتعليم من البداية، وأصبح منتهى ما يصبو إليه الشباب هو أن يسوق عربة نقل أو يشتغل فى عمالة الإنشاء، ومنهم من لا يتطلع بعيدا ويكفيه أن ينضم إلى قطاع صناعة الخدمات .. وأما من امتلكوا موهبة فنية فيتصارعون على الولوج فى عالم التمثيل والرقص والغناء فينتهى جلهم إلى حياة الشوارع والوقوع فى مخالب النوادين وتجار المخدرات .

هجرة الأجسام القادرة

اللهفة على الدولار حدت بشباب شعوب أخرى نامية السعى جاهدين للنزح على أوروبا وأمريكا للقيام "بأى عمل" على حد التعبير الشائع أو بمعنى أدق العمل فى قطاع "صناعة الخدمات" الذى عزف عنه الكثير من أهل البلاد .

ومن المضحك أن تقوم الدول الثرية بوضع العراقيل أمام نزح الأجسام القادرة إليها رغم حاجتها إليها، حتى تزين لهم ما هم بصدد الحصول عليه من رذيل العيش .. فعلى من يرغب العمل فى تلك الأعمال الدنيا أن يتسرب إلى البلاد بطريقة غير قانونية ويختفى عن الأبصار التى قد تلاحقه فلا يمشى إلا متلفتا حواليه كلص بليل يجوب الأزقة والحوارى الخلفية ولا يعيش إلا فى غياهب الجب أو تحت الأرض .. وحتى يحلو الوضع الشائك للمغامرين وأصحاب الطموحات المالية يدفع المتسرب من الجنوب مبالغ كبيرة إلى من يهربهم عبر الحدود .

أما القادمون بالبحر فمنهم من يختبئ فى بالات وصناديق الشحن .. غير أن أصحاب المقدرة من راكبى الطائرات فعليهم دفع مبالغ طائلة للحصول على تصريح دخول سياحى سواء كرشوة أو إكرامية أو أجرا لنصاب يتاجر فى أحلام المراهقين، ولما كان القانون الأمريكى والقانون فى العديد من دول أوروبا يعاقب

صاحب العمل على توظيف من ليس له صفة قانونية فى البلاد فليس أمام النازحين من فرص عمل إلا العمل بصورة غير مشروعة مما يحرمهم من حقوق العمال الآخرين مثل الحصول على أجرة لا تقل عن حد أدنى تحدده الحكومة .

لهذا فإن أصحاب الأعمال يقبلون على استخدام هؤلاء الغرباء يدفعون لهم ما يجودون به .. بهذا يستطيع صاحب العمل استئجار عشرة أجسام قادرة بسعر واحد قد يكون غير قادر من الأمريكيين .

نضرب مثلا لذلك عشرين طالبا يعملون فى مطعم يهودى بنيويورك، يفترشون الأرض أثناء الليل ويأكلون من بقايا الطعام الذى يقدمه المطعم ويؤجرون على عملهم عدة دولارات كل أسبوع تساعدهم على إثبات ما أنجزوه من سعى وراء الغنى فى البلاد التى استضافتهم أمام رفقاء لم تتاح لهم فرصة السفر من بلد لا يقدر كفاءات أهله .

والمستفيدون من هذا الوضع فى الولايات المتحدة الأمريكية .. مثلا .. كثيرون منهم ما يسمى بدكاكين العرق حيث يستورد أصحابها آلاف الفتيات

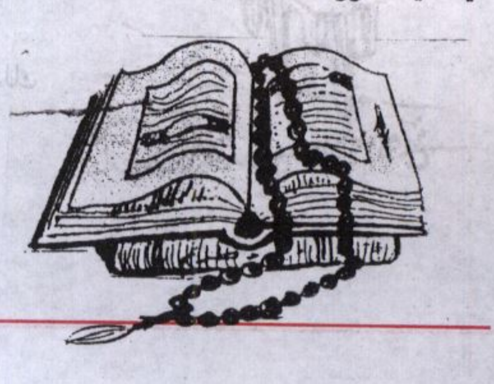

لخياطة ملابس السيدات لقاء مطعمهم ومأواهم واللمم من المال لإرساله إلى أهاليهم، والعديد يعمل فى حصد المحاصيل خاصة الفواكه والخضروات .. كما أن من هؤلاء الخدم حتى أن واحدة من المرشحات لمنصب النائب العام الفيدرالى كانت تستخدم عائلة بكاملها لقاء المأكل والمأوى .

ويساعد على استمرار هذه المهزلة البشرية التى لا تخلو من المخاطر المفتعلة حملات الترويج الشخصى والإعلامى لها .. فكل من يعود إلى وطنه يحدث بلباقة عن الترف والنعيم الذى عاش فيه ويعتذر عن قلة ما عاد به من المال على أنه آثر التمرغ على بساط العز على أن يقتصد ويعود إلى الكرب والضنك مثقل الجيوب.

وإذا كان أجر الجسم القادر على اللأواء رخيصا فالكلام أرخص، وفى غيبوبة الحلم بالغنى والترف قلما يكون هناك بين المستمعين من يتحقق من الأمور أو يستقصى الأحداث أما الإعلام فهو الآخر يدلى بدلوه، فقد جاء على لسان أحد الممثلين فى إحدى الحلقات التليفزيونية يوضح كيف كون ثروته التى تقدر بعدة مليارات، فقد نزح إلى أمريكا وكان يعمل "أى كلام" أو بالأفصح يغسل الأطباق فى مطعم فاستطاع أن يدخر مليون دولار فى عام واحد، وعاد إلى بلده بالمليون لينشئ مشروعا ناجحا وفى ظرف سنتين أصبح صاحب مليارات .

وبالطبع لم يذكر ما المشروع .. وبحسبة بسيطة يمكن التحقق من الكذب الصراح الذى أورده كاتب الحلقات على أنه مستلهم من قصة واقعية، فلو أن صاحبنا عمل ليلا ونهارا دون أن ينام فإن أجرته فى الساعة ستزيد على ١١٤ دولار فى الساعة بينما الحد الأدنى للأجور ٤ دولار .. ولو أن غسل الصحون فى أمريكا أو أى بلد آخر يحصل على مثل هذا الراتب لترك كل الأمريكان وظائفهم بما فى ذلك حكام البلاد واشتغلوا بغسيل الصحون حتى تم تنظيف أطباق العالم كله .. إلا أن مشاهد الأفلام والحلقات لا يدقق وكفاه أن يفغر فمه ويشهق إعجابا لا تعجبا مما يقال .

وهكذا بالتدريج تتحول الشعوب النامية إلى عمال سخرة فى بلادهم أو عمال تراحيل فى بلاد أكثر غنى فالاقتصاد العالمى الجديد فى حاجة إلى أجسام قادرة .. وهكذا يتخلى أهل البلاد الفقيرة عن أى عمل يستلزم استحضار المخ أو إجهاد العقل ليفسحوا مكانا لهجرة الأدمغة من الدول التى ملكت القرش وخسفت سعر الابتكار حتى أصبح ثمن العقل الآدمى أقل من ثمن أوقية من مخ خروف .

وليس مستبعدا أن نشهد مؤتمرات تعالج قضية هجرة الأدمغة المتحضرة، غير أن هذا لن يحدث عن قريب فلايزال العلم مشتغلا بعلاج معضلة هجرة الأدمغة من الدول النامية إلى الدول التى نمت وترعرت.

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾

.... (آل عمران : ١٤٠) .

د . عبد الفتاح الحسينى

الولايات المتحدة الأمريكية

صفوان المازنى

هو صفوان بن محرز العابد الباكى .. والعبادة والبكاء كلمتان ينفر منهما مزاج عصرنا الذى نعيش فيه، لأنه لا يعرف عن العبادة إلا الطقوس البالية التى يراها، أو التكاليف الجامدة التى فرضتها التقاليد، ولا يدرك من أمر البكاء إلا ما كان سببه مصيبة أو ضعفًا ينزلان فيطردان أنس الحياة وبهجتها .

ولكن عبادة صفوان وبكاءه، كانا من الطراز الذى لا يعرفه عصرنا المحروم، ولو عرفه لعرف أى فقر فيه، الفقر من القيم العالية التى يوحيها سر الحياة .. والتى لا تحدّها قوى الذرة ولا مخابد المعامل ولا سياسات الدول ولا الموت ؛ إنها أقوى من هذه كلها لأنها وحى السر الذى أفاض الحياة ولايزال يحكمها ، وأقوى من الموت لأنها وحى الذى خلق الحياة والموت !! ثم ماذا بهذه القوى المحدودة بعد الموت .. بعد النهاية التى لا يمبك أصحابها أن يفروا منها مهما ركبوا الهواء أو غاصوا فى الماء.

إن بعد الموت خلوداً لا ينقص منه أنهم لم يقدروه، ولن ينفعهم فيه أنهم تجاهلوه، وهم صائرون إليه مهما علموا ومهما اخترعوا، وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً .. أيهم الجاهل إذن، صفوان فى محرابه، أم علماء الذرة فى القرن العشرين ؟!

يقول عبد الله بن رباح :

كان صفوان المازنى إذا قرأ هذه الآية ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .. (الشعراء : ٢٢٧) بكى حتى أقول اندق قصيص زوره !

ويقول غيلان بن جرير : كانوا يجتمعون فلا يجدون لقلوبهم رقة، فيقولون : يا صفوان، حدث أصحابك فيقول : "الحمد لله" - ما يقول غيرها - فيرق القوم وتسيل الدموع من أعـ نهم كأنها أفواه المزادة !

ولم يكن صفوان الرجل الذى ينطوى على نفسه ويلقى الحكمة لا يبالى بأحوال من ألفيت إليهم، ولكنه كان فى تربيته أستاذا يجيد فنها، ولا يضع علمه فى غير موضعه، ويخاطب كل مقبل عليه بالطريقة التى تصلح له، وإنك لتلمح ذلك فى القليل الذى ورد عنه .

روى الربيع عن أنس أنه كان عند صفوان حين دخل عليه شاب من أصحاب الأهواء، فذكر له شيئا، فقال له صفوان فى لهجة حازمة : أيها الفتى .. ألا أدلك على خاصة الله تعالى التى خاص بها أولياءه ؟.. يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ .. (المائدة : ١٠٥) ، وروى محمد بن واسع : رأيت صفوان بن محرز وأناسا فى المسجد قريبا منه يتجادلون فقام ونفض ثوبه وقال : إنما أنتم جرب !!

***

وكان له من اعتزازه بالله صولة يرهبها أرباب السلطان، ورعاه الله فى ذلك رعاية لا يظفر بها إلا الخالصون من أوليائه .

يروى جعفر بن ثابت أن "ابن زياد" قبض على ابن أخ لصفوان فتحمل عليه الناس، فلم يبق أحد إلا كلمه فيه، فلم تقض حاجته، فبات صفوان ليلة فى مصلاه وهو يصلى، فلما رقد أتاه فى منامه فقال : يا صفوان قم فاطلب حاجتك من قبل وجهها .. قال : أفعل فقام وتوضأ فصلى ودعا .. يقول جعفر : فتنبه ابن زياد فى بعض الليل فقال : علىَّ بابن أخى صفوان، فجاء الحرس والشرط والنيران، ففتحت أبواب السجن حتى استخرج ابن أخى صفوان فجئ به إلى ابن زياد، فقال له : أنت ابن أخى صفوان ؟.. قال : نعم، فأرسله .. فما شعر صفوان حتى ضرب عليه الباب، فقال : من هذا ؟.. قال : أنا فلان، تنبه الأمير فى بعض الليل فجاء الحرس والشرط وجئ بالنيران وفتحت أبواب السجون فخلى عنى بغير كفالة !!

***

وأسند صفوان عن عدة من الصحابة، منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو موسى الأشعرى، وعمران بن حصين، وحكيم بن حزام، رضى الله عنهم جميعا .. وكثير من الأحاديث التى رواها تشف عن قلبه النضر فيما تلقى وحفظ .

روى عن قتادة :

بينما عبد الله بن عمر يطوف بالبيت إذ عارضه رجل، فقال : يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟.. فقال له : سمعته يقول : يدنو المؤمن من ربه عز وجل يوم القيامة كأنه بذج (١) فيضع عليه كفه، فيقرره، فيقول : رب أعرف، فيقول :

أنا سترتها عليك فى الدنيا، وأغفرها لك اليوم، ويعطى صحيفة حسناته .. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد :

﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .. (هود : ١٨) قال سعيد وقتادة : فلم تجد أحداً خفى خزيه على أحد من الخلائق .

وروى عن حكيم بن حزام : قال : بينما رسول الله ﷺ فى أصحابه إذ قال لهم : "تسمعون ما أسمع ؟.. فقالوا ما نسمع من شئ .. قالا : إنى لأسمع أطيط السماء، ولا تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم (٢) .

وقد كان تطلّع صفوان إلى الغيب، وتجاربه معه، أمرا يشغله، ويعد له نفسه، ويحاول أن يقتحم له الحجب، يقول المعلمى بن زياد : كان يقول : قد أرى مكان الشهادة لو شايعتنى نفسى !!

وروى حماد بن ثابت أن صفوان كان له خص فيه جذع، فانكسر الجذع، فقيل له : ألا تصلحه فقال :

دعوه .. فإنما أموت غدا !!

وقد مات فى غده، رضى الله عنه وأرضاه .

***

هامش :

(١) فى النهاية : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج من الذل : قال البذج ولد الضأن .. الحديث متفق عليه .

(٢) تفرد به صفوان عن قتادة وسعيد بن أبى عروبة

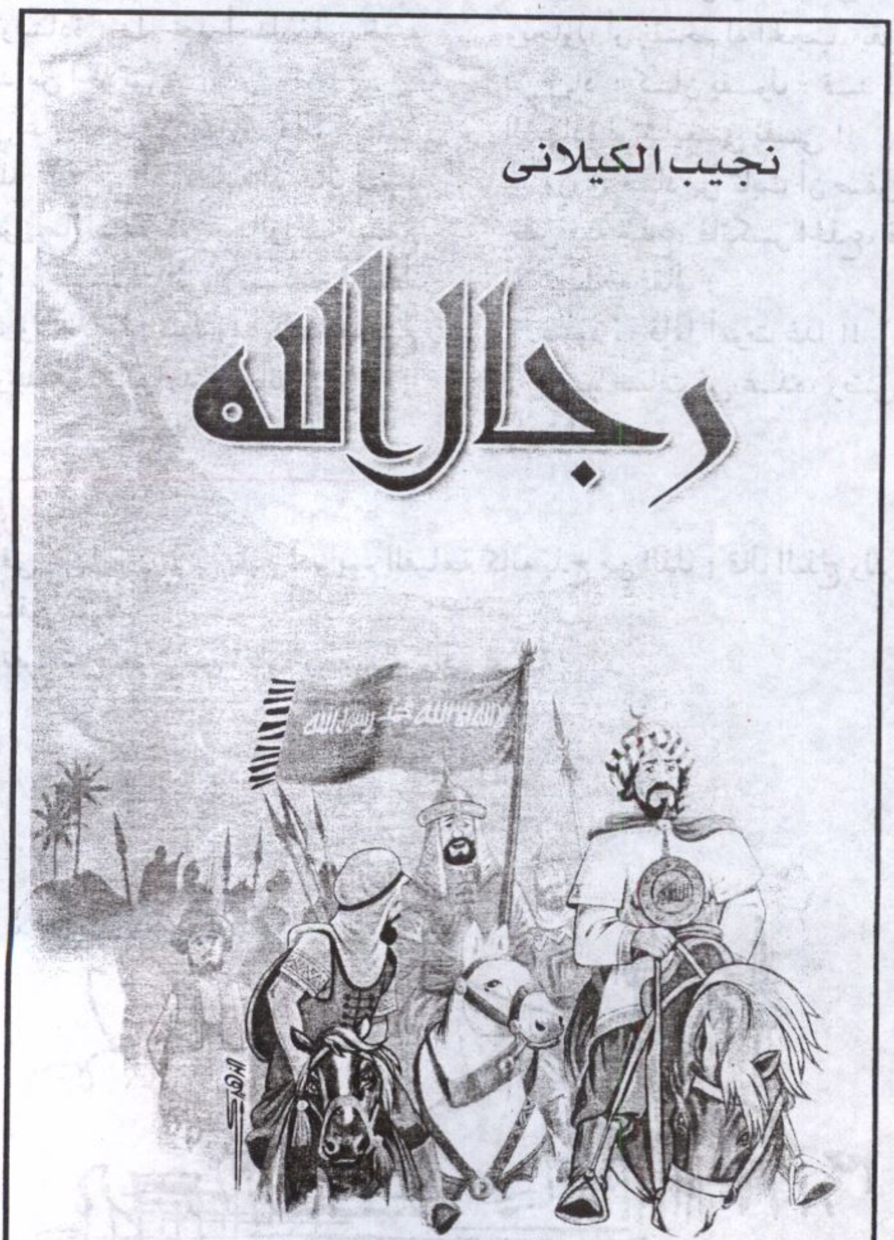

بقلم: د. نجيب الكيلانى

العرش المحطم

بقلم : د. نجيب الكيلانى

"وا كرباه يا سعدان .. أهكذا الدنيا لا تبتسم إلا لتكشر عن أنياب الغدر والخديعة ولا تبدى لونًا من الألوان الرضى والإقبال إلا لتبدله جفوة ومرارة ؟" .

كان سعدان يمضى فى طريقه كالحالم، وهذه العبارات تطن فى أذنيه، وتسرى فى كيانه كله، فتهزه هزاً عنيفًا مؤلمًا، وما هى إلا صدى لما يحتدم فى نفسه، ويثور فى ضميره .

وانطلق سعدان فى طريقه من شارع لآخر غير عابئ بما يدور حواليه من حركة واضطراب تموج بهما شوارع الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية .. فليس الناس فى نظره إلا قطيعا ضالا، أو دمى تحركها يد الطغيان، ومضى سعدان ساهمًا واجمًا، وقد اكتسى وجهه بغلالة من الشحوب والحزن أخفت خلفها نضرة شبابه وميعة صباه، ووسامة خلقته، وتعبيرات وجهه قد بانت فيها تقلصات مخيفة تنبئ عن الثورة والمقت واليأس المميت .

ووصل سعدان إلى بيته وهو كالمسحور، فولج الباب واندفع إلى الداخل دون أن يكترث بشئ حتى إذا بلغ باب حجرته ركله بقدمه ركلة قوية فأحدث ضجيجًا أثار الفزع فى قلب كل من بالبيت ووقف داخل حجرته مذهولاً، ثم ألقى بجسده المنهوك على مقعد قريب منه، وانحنى بوجهه المكفهر، وعينيه المحتقنتين على منضدة أمامه، وفى هذه اللحظة أقبلت غادة هيفاء القد، وسيمة التقاطيع تلبس ثوبًا حريريًا أخضر، ثم هتفت بنبراتها الرقيقة الوالهة :

– ما لمولاى الحبيب قد أخفى وجهه هكذا عنا ؟.. لا أراك الله بأسا يا مولاى.

لكن ليلى : تلك الجارية الحسناء لم تتلق جوابًا على استفسارها فهالها خروج سيدها عن مألوف عاداته، وسرعان ما غربت الابتسامة من فوق شفتيها، فتقدمت نحوه فى لهفة وقلق .. ثم قالت :

– ألا ترد يا مولاى ؟..

فلم يلتفت إليها .. وظل مكبًا كما هو لا يتململ .. أما هى فقد اقتربت منه .. وتسللت يدها إلى رأسه لتربت عليه فى عطف وتودد .. وعيناها الواسعتان تشعان بالإشفاق والحنان .. لكنه فاجأها بدفعة قوية من يده، فقذفت بها عند مدخل الحجرة حيث ارتمت هناك خائفة هالعة، وتحركت شفتا سعدان المطبقتان أخيراً يقول :

- اذهبى بعيداً عنى أيتها البلهاء المأفونة ..

ولما رأت ليلى الخواطر السوداء تلوح فى عينيه، لمت أطراف ثوبها فى عجلة وولت هاربة .

وأقبلت أم سعدان مهرولة، يكللها تاج المشيب، ثم تقدمت نحو ولدها متلهفة : "ماذا بك يا ولدى ؟.."

فحملق فيها سعدان مشدوهًا ثم أمسك بيدها الضعيفة الواهنة فجذبها إليه فى غلظة لم تألفها فيه من قبل، وهزها هزاً عنيفًا فقال لها :

- ألا تعلمين ؟.. لقد قتلوه .. قتله الأوغاد الشياطين، وفغرت الأم فاها .. لكنها تمالكت نفسها وقالت :

- قتلوا من ؟..

- قتلوا أبى .. ذبحوه كما تُذبح الشاه .. ثم بقروا ببطنه .

وكانت الأم قد فقدت توازنها ، وغلبت عليها الصدمة المباغتة فوقعت على الأرض مغشيًا عليها ، وأفاقت الأم من غيبوبتها لترى كل من بالبيت من خدم وعبيد يعولون ويبكون، وليلى بينهم تنشج نشيجًا حزينًا بعد أن جاء الخبر بمصرع سيد البيت الكبير ولى نعمتهم .. واتجهت الأم ببصرها إلى السماء وهتفت :

- إنا لله وإنا إليه راجعون ..

ومرت ساعات قبل أن يئوب سعدان إلى رشده، وبعد ذلك ترك العنان لدموعه كى تسطر آيات اللوعة والرثاء لأبيه الراحل الشهيد .. حتى إذا انتهى من نوبة البكاء التى دهمته شرد ببصره وقال :

- قتلك خليفة المسلمين يا أبى .. ظل الله ؟.. يا للمهزلة !! إنه ظل الله فى الأرض كما يزعمون ، حتى لكأن الله لم يلق ظله بين الناس إلا فى صورة ذلك الطاغية السلطان عبد الحميد .

- وهمست الأم فى صوت كسير :

- له الويل .. هل نصبه الله خليفة ليسفك الدماء ويرمل النساء ؟..

- وهل الحكم اليوم يا أماه إلا القسوة والطغيان وإزهاق الأرواح ؟..

وصرخت الأم والدموع تغرق خديها : "عليكم اللعنة يا أحفاد آل عثمان .. صرعتم الفضائل .. وبددتم التراث .. عليكم اللعنة يا عبيد الشهوات .. أيتها الظلال الكئيبة على الأرض .

كان الشيخ الشهيد إبراهيم .. والد سعدان، من خيرة علماء الأستانة .. وعلى الرغم من حاله المتواضع، وعلمه الغزير فقد كان قنوعًا كريم النفس، يعف عن الحرام، ولا يتزلف إلى أرباب السلطان فعاش بين معارفه موضع الحب والتقدير، ولم يكن يبغى من دنياه إلا أن يحفظ الله له زوجه التقية الطاهرة، وفلذة كبده سعدان وتلك الجارية الجميلة ليلى التى أعتقها على أن يزوجها قريبا من وحيده سعدان .. شئ واحد كان يكدر صفو الشيخ .. لأن هذا الشيئ فى نظره كل شئ، ولا غنى عنه للإنسان المؤمن .. ولا سيما إذا كان عالما كبيراً مثل الشيخ إبراهيم .. إذ كان يشعر أن عليه تبعة ورسالة يجب يؤديها لأنه سيحاسب عليها أمام الله .

فالسلطان عبد الحميد حاكم مطلق فى البلاد .. ورغم دهائه وذكائه إلا أنه كان قاسيًا متحجر القلب لا يرحم، والأدهى من ذلك أن كل من حوله من وزراء وعلماء وقواد قد تمادوا فى انحرافهم، ولطالما فكر الشيخ إبراهيم فى ماضى المسلمين الزاهر وحاضرهم المؤلم فهاله الفرق الشاسع، وكثيراً ما كان يصرح بما يعتمل فى نفسه لمستمعى دروسه فى المسجد .. فحمل الجواسيس المنبثون فى كل مكان نبأ الشيخ إبراهيم إلى السلطان، وبالغوا فى حديثهم عن الشيخ .. وعن دروسه وأفكاره التى تهدد أمن البلاد ، ورغم أن الشيخ أبعد ما يكون عن التآمر إلا أن تهويل الأمر لدى السلطان ثم توجسه خيفة من أدنى الحركات التحريرية جعله ينظر إلى الأمر بخوف وحذر .

وحينما سأل السلطان من حوله من العلماء عن الشيخ إبراهيم سارع أحدهم قائلا :

- الحق يا مولاى أن أمثال الشيخ إبراهيم من المتحذلقين ما هم إلا عقبة كئود فى طريق كل تقدم، ونغمة شاذة تؤذى السمع .

وتجسم الوهم عند السلطان الطاغية، وفكر قليلا ثم قال :

- حسن .. سنبعث فى طلب الشيخ فى الغد لنسمع ما يقول .

وفى اليوم التالى أقبل الشيخ إبراهيم تحيط به كوكبة من عساكر السلطان، ليقابله فى أمر ذى بال، واقتيد الشيخ إلى السلطان بالداخل، بينما بقى ابنه سعدان فى الخارج ..

ورأى الشيخ خليفة المسلمين محاطًا بالأبهة والعظمة، وحوله بعض العلماء الرسميين يجلسون فى خشوع ورهبة، وكأنهم فئران مذعورة، فقدم الشيخ للسلطان ولهم فروض الطاعة والولاء، وحياهم بتحية الإسلام، فلم يسمع غير صدى تحيته، وأطل بنظرات ليرى عبد

الحميد مكفهر الوجه، غاضب النظرات، ثم سمعه يصيح فى وجهه :

- ما الذى أغضبك منا حتى تهيج علينا شعور الدهماء، وتثير من حولنا حقد الناس ؟..

- عفواً يا مولاى .. إنى لم آت ما يعتبر جرمًا .

فاستشاط السلطان غضبًا : "هذا هراء .. إنك تخدعنا، وتكذب علينا، تتنكر لليد التى تتقدم لكم بالأنعام .. ألم تتهمنا بالاستبداد والتعسف أيها الشيخ المضلل ؟.." .

واستبد بالسلطان السخط، فتناول أصيصا زجاجيًا كان أمامه وقذف به فى وجه الشيخ، فشج رأسه دمًا، دون أن يتفوه أحد الجالسين بكلمة، ورشق الشيخ الجريح بنظرات شرسة متوحشة، وزمجر قائلا :

- إنكم لا تعرفون للأدب حدودا .. وتطلقون ألسنتكم بالكلام الفارغ، وتدسون أنوفكم فيما لا يعنيكم، لكننى أعرف كيف أؤدب المارقين منكم، وأقطع ألسنتكم لحد سيفى .

وتمتم الحاضرون فى وجل :

- أجل .. أجل يا مولانا أيدك الله بروحه ..

أما الشيخ إبراهيم فقد غلت الدماء فى عروقه .. واجتاحت كيانه ثورة عارمة وطرقت أذنيه كلمات كأنها تهبط عليه من السماء "الساكت عن الحق شيطان أخرس أيها الشيخ المؤمن .. ما الحياة ؟.. وما الموت ؟.. وما الدنيا بأسرها إزاء كلمة الحق سوى شئ تافه .. تكلم .. تكلم بما يرضى الله ورسوله" .. وأفلت الزمام من يد الشيخ فأرسل كلمات محمومة كأنها الشواظ .

- إن ملكًا هذا شأنه .. وتلك سياسته .. مصيره إلى الزوال ولن تجدى سطوة، أو تنفع قوة، أو تحميه من المصير المحتوم أية قوة أو عصبية آثمة من العلماء الضعفاء.

وعقدت الدهشة لسان السلطان، بينما واصل الشيخ كلامه :

- لقد أصبح الإسلام رسومًا بالية، وصارت المُثل والمبادئ ضربًا من الهذيان، وأصبح الضحايا المظلومون قناطر للمآرب والمنافع، ولهذا تناوشتنا الدول، وحاكت لنا المؤامرات، وشجعت المحافل الماسونية، والجمعيات السرية التى تعمل للقضاء على وحدة الأمة الإسلامية، فالويل .. الويل لكل مفرط فى حق الدين والوطن .

وما إن انتهى تأثير المباغتة حتى أطبق الحراس على الشيخ وأغلقوا فمه، والخليفة يهتف بهم :

- اقتلوه .. اقتلوه شر قتلة .. مثلوا به أشنع تمثيل ..

وهكذا ازداد عدد الضحايا واحداً .. الضحايا الذين كانوا يلقون فى عرض

"البسفور"، ويُغتالون فى جنح الظلام، أو يُتركون ليأكلهم الجوع والحرمان والعذاب وراء القضبان داخل السجون .

وهكذا عاد سعدان إلى أمه هائجًا مرتاعًا .. حاملا إليها أسوأ خبر تلقته فى حياتها .

وتناقلت الأفواه الهامسة هذا الخبر فى كل مكان من أنحاء الآستانة، أما سعدان فقد تمادى فى أحزانه، وصورة أبيه الشهيد لا تفارق خياله، فثوى فى بيته لا يغادره أبداً .. وعافت نفسه الطعام والشراب إلا القليل الذى لا يكاد يقيم الأود .. وأهمل شعر لحيته ورأسه، وتركه يطول ويتهدل فى غير نظام .. وأصبحت نظراته دائمة الشرود والذهول، وكثيراً ما كان يهب فى جوف الليل مذعوراً .. ويصيح بأعلى صوته قائلا :

- قتلوه .. قتلوه ، أبى ذبحوه كما تُذبح الشاة ..

فتسارع أمه ضارعة : "أهكذا يودع الشهداء يا ولدى ؟.. وماذا يجدى البكاء والنحيب يا سعدان ؟.. لقد ذهب أبوك إلى لقاء ربه شهيداً كريمًا .. فنعم الطريق اختار" .

فيرد مهتاجًا : "الثأر .. الثأر .. لن يضيع دم أبى هدراً ..

وعاش سعدان لا يهتف إلا بالثأر فى ليله ونهاره .. كان الثأر يدفعه إلى الأمام .. لكن ضعفه وعجزه يجرانه إلى الوراء .. ومن سعدان إذا ما قيس بالسلطان الممجد صاحب اللواء الأكبر وظل الله فى الأرض؟..

وظلت صورة أبيه الشهيد تطالعه فى يقظته ومنامه وتلح عليه إلحاحًا لا يجد منه مهربًا، حتى أصاب عقله الخللُ، والتبست الأفكار فى مخه المشوش، فكان يخرج أمام بيته فى غير مبالاة .. ويلقى بالكلام على عواهنه، ويقذف باللعنات على من قتلوا أباه، ووجهه الشاحب يفيض بالحزن وينطق بالمرارة، ونظراته البلهاء تشى لحاله ولحال أمه التى تتعلق بأهدابه محاولة تهدئته وإعادته إلى داخل البيت .. ولكن كيف للمجنون أن يفهم ضراعة أو يعى توسلات الحزانى المتعبين ؟..

وذات ليلة حالكة السواد سمعت الأم الساهدة حركات غريبة لدى باب البيت، ثم ازدادت وضوحًا ، فاستطاعت أن تميز وقع

الأحذية الثقيلة، وما هى إلا دقائق قليلة حتى رجعوا من حيث أتواومعهم سعدان .. سعدان المجنون .. ويداه مكبلتان بالحديد ونظراته البلهاء هى هى لم تتغير .. وشعره الكث على حاله من التهدل والإهمال .. ولم يبد على سعدان أنه يدرك لهذا الأمر معنى حتى إن أمه حينما بكت وتوسلت لم يفهم مغزى ذلك .. وليلى هى الأخرى عندما أجهشت بالبكاء .. لم يفكر فى سر بكائها .. بل كان يبتسم ابتسامة بلهاء قاسية .

وأخذوا سعدان بعيداً إلى الوادى الرهيب، حتى إذا ما صرخ أو استنزل اللعنات على السلطان لم يسمعه أحد، وقذفوا به فى حجرة مظلمة رطبة .. من حجرات السجن العتيق، كما قذفوا بالآف غيره من قبل .. فابتلعهم كالوحش الجائع الذى لا يشبع .

***

جلست الأم كعادتها .. وقد ازداد شعرها بياضًا .. وخبا بريق الأمل والحياة

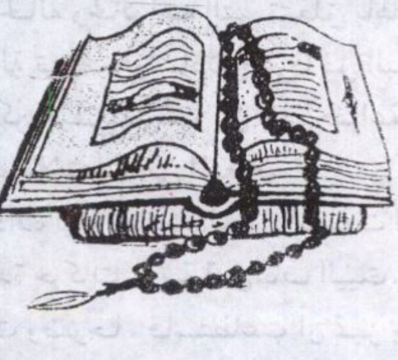

فى عينيها اللتين أضناهما البكاء الطويل .. بينما قبعت ليلى إلى جوارها حزينة مكتئبة .. واتجهت الأم ببصرها إلى السماء بعد أن ضاقت بها الأرض شاكية إلى الله أمر زوجها البرئ الراحل، وابنها الحى الميت .. ذلك البلاء الذى شمل الأسرة كلها بوشاحه الأسود القاتم .. وهتفت بصوت جريح ملتاع :

- اللهم أنت المنتقم الجبار .. اللهم خذنى إليك .. فقد فاضت كأسى ولم أعد أحتمل .. يا إلهى .

لكن الله لم يشأ أن يستجيب لدعائها إلا بعد أن تلقت السهم الأخير .. حينما عاد إليها أقوام غرباء .. حاملين فى صندوق خشبى "شيئا" ملفوفا فى أقمشة بيضاء .. وما هى إلا دقائق استلزمتها مراسيم الوداع، ثم حملوا بعدها جثة سعدان الشهيد الثانى إلى مقره الأخير بعد أن أنهكته العلة، وهدته الآلام داخل الأسوار وحطم الطغيان آماله ومستقبله ..

***

ومرت سنوات قلائل .. كانت كلها دماء وقلاقل .. انهار حكم آل عثمان على أثرها إلى الأبد .. وقُذف بعبد الحميد بعيداً عن كرسى الخلافة .. وتحطم العرش العريق الذى ملأ الدنيا والتاريخ ضجيجًا لا ينتهى أبد الدهر .

***

الخطر الأكبر أن يصبح "التفاوض" بديلا عن المواجهة ووقف محرقة الأسد

انتهت جولة التفاوض الأولى بين وفد نظام دمشق ووفد قوى المعارضة والثورة السورية بلا نتائج تذكر على المستوى السياسي، ونتائج متواضعة على المستوى الإنساني.

بقلم د. بشير نافع

في بيانه للرأي العام، لم يخف عراب مباحثات جنيف ٢ وأكثر الدبلوماسيين الدوليين حماسة لها، الأخضر الإبراهيمي، ضآلة النتائج، مؤكداً على أن مجرد جلوس الطرفين إلى مائدة تفاوض واحدة كان إنجازاً لا يستهان به.

على الأرض، يواصل النظام قصفه البربري للمناطق التي يسيطر عليها الثوار، موقعاً خسائر فادحة بالمدنيين من مواطني شعبه، ويستمر نزيف اللاجئين السوريين إلى دول الجوار.

على الساحة الدولية، ثمة شعور مبالغ فيه بالإنجاز، بعد أن نجحت الضغوط الروسية والأمريكية في إطلاق المفاوضات بين الطرفين.

الخطر الآن، يتعلق باحتمال أن يغرق الائتلاف الوطني السوري، الجهة الرئيسية الممثلة للمعارضة والثورة السورية، في مناخ تفاوض لا نهاية له، وينسى واجباته الأولية والأساسية في قيادة الشعب وثورته، وتوفير المقدرات الضرورية لاستمرار الثورة وصمود الشعب.

أما الخطر الأكبر، وقد انطلقت جولة المفاوضات الثانية، أن تصبح "العملية"، عملية التفاوض، بديلاً عن مواجهة العرب، والمسلمين، والعالم، لمسئولياتهم،

ووضع نهاية للمأساة السورية اليومية .

لم يكن التصميم الأمريكي الروسي على عقد جنيف ٢ غريباً أو استثنائياً .. كلتا الدولتين الكبريين وجدا منذ اتفاق جنيف ١ بين لافروف والسيدة كلينتون في صيف ٢٠١٢ أن الثورة السورية وضعتهما في مأزق، وأن عليهما إيجاد مخرج ما من هذا المأزق .

وقفت روسيا من البداية إلى جانب نظام الأسد، آخر حلفاء موسكو الخلص في المشرق العربي، والذي وفر لها قاعدة بحرية على المتوسط، أحيت شعور الدولة العظمى وقدرتها على التواجد في البحار الدافئة .

ولكن وقوف روسيا إلى جانب الأسد، ساهم في تشويه صورة روسيا في العالم العربي، سيما في أعين الشعوب العربية، التي لم تبتلع أطروحة المؤامرة الغربية على سورية، ولا اقتنعت بروايات دمشق المبكرة حول التطرف الإسلامي .

في الشارع العربي، كما في الأوساط الروسية الليبرالية، بل وحتى في بعض دوائر صنع القرار الروسي، لم يكن ثمة خلاف حول أن الثورة السورية جزء لا يتجزأ من حركة تحرر عربية من الاستبداد والفساد والقمع .

ولكن الحرج الروسي لم يولد من حجم العنف وسياسات القمع البربري التي اعتمدها النظام، فإدارة بوتين لم تتورع عن اتباع السياسات والوسائل نفسها في الشيشان .

جاء الحرج من عجز النظام السوري عن حسم المعركة سريعاً وإخماد حركة الشعب وثورته. وللتخلص من هذا الحرج، تبنت موسكو مقولة عدم الحرص على شخص الأسد، بل على الشعب السوري، وأنها تسعى لانتقال شرعي وقانوني للحكم، وليس الحفاظ على النظام .

وهذا، بالطبع، ليس صحيحاً، ولا معبراً عن حقيقة السياسة الروسية، ولم يكن صحيحاً ولا معبراً في أي وقت مضى من سنوات الثورة السورية الثلاث .. اتفاق جنيف الأول، ثم التوكيد عليه في موسكو العام الماضي، خلال لقاء كيري لافروف، مثل مخرجاً مناسباً للحرج الروسي، بل ومخرجاً مثالياً وأخلاقياً .. كيف لا وهو الداعي إلى تسوية سياسية بين أطراف الصراع، من خلال تفاوض مباشر بينها .

الولايات المتحدة كانت هي أيضاً في حرج .. والحقيقة، وبالرغم من ردود فعل حلفاء واشنطن العرب الغاضبة من الموقف الأمريكي في سوريا، فإن مقاربة إدارة أوباما لم تتغير بأي صورة ملموسة منذ اندلاع الثورة في مارس ٢٠١١

بخلاف التدخل الأمريكي الخجول

والمتردد في ليبيا، أوضحت واشنطن أن ليس في نيتها التدخل بصورة فعالة في سوريا، حتى بعد أن خرج مئات الألوف من السوريين يطالبون بالتدخل الدولي .. وبتصاعد معدلات القمع الذي مارسته قوات النظام ضد الشعب، وتحول الثورة تدريجياً إلى مقاومة مسلحة للنظام وأجهزته، ومن ثم تزايد الأدلة على تدخلات إيرانية ومن قوات حزب الله، لم تظهر في واشنطن أية مؤشرات على لعب دور مباشر في الأزمة .

لم يعارض الأمريكيون الدور الذي أخذت تركيا والسعودية وقطر في لعبه منذ ربيع ٢٠١٢، ولكنها ضغطت بقوة من أجل أن لا يتسلم الثوار السوريون سلاحاً نوعياً أو بكميات كبيرة، بحجة وجود جماعات إرهابية وذات ارتباط بالقاعدة في معسكر الثوار .

ولكن واشنطن، أيضاً، كانت تستشعر الحرج .. أولاً، لأن الثورة السورية سرعان ما تطورت إلى نوع من الأزمة الإقليمية والدولية؛ وثانياً، لحجم المأساة الإنسانية التي ترتبت على سياسات القمع الوحشي والعقاب الجماعي التي تبنتها قوات النظام وأجهزته؛ وثالثاً، لأن الأحداث أخذت في تجاوز المحاذير التي أعلنها الرئيس الأمريكي وإدارته، الواحد منها تلو الآخر.

في جنيف ١، كما في إعلان موسكو بعد ذلك بعام، وجدت الولايات المتحدة وسيلة لتقول للعالم ولحلفائها إنها تقوم بشيء ما، وإنها تعمل بالفعل لانتقال الحكم في سورية من خلال التفاوض، لا الحرب، والتي لم تتصور واشنطن يوماً أن تكون طرفاً فيها .

في الواقع، لا الائتلاف الوطني السوري ولا القوى الإقليمية الرئيسية، ولا حتى النظام في دمشق، كان متحمساً لمباحثات جنيف . انتابت الائتلاف الوطني الشكوك في مصداقية الراعيين الدوليين للمباحثات، وجدية إدارة أوباما، في العمل على انتقال فعلي وكامل للسلطة في سورية .

في لحظات ما، سيما بعد توقيع اتفاق جنيف بين إيران ومجموعة ٥ + ١ حول الملف النووي الإيراني، سادت في أوساط الائتلاف الوطني قناعة بأن مباحثات جنيف ليست سوى محاولة لإيجاد تسوية، تبقي النظام في موقعه، وتخلص القوى الكبرى وما يعرف بالمجتمع الدولي من الشعور بالذنب وتأنيب الضمير .

النظام، من جهته، لم يكن أقل خشية .. فبالرغم من الدعم الروسي المستمر، وبلا انقطاع، منذ اندلاع الثورة، خشيت أوساط النظام من صفقة روسية - أمريكية، تضعه في مأزق حقيقي أثناء المباحثات، وتجبره على الاختيار بين

الموافقة على التخلي عن الحكم والسلطة أو الظهور بمظهر من يعصف بالإجماع الدولي.

وبالرغم من أن إيران، حليف النظام اللصيق، شاركت دمشق المخاوف ذاتها ؛ كانت لإيران أسبابها الخاصة في عدم الحماس لجنيف، بعد أن اعترضت أغلب الدول العربية المعنية، وعدد من الدول الغربية، على وجودها على طاولة المفوضات.

من جهة أخرى، أيدت تركيا والسعودية وقطر مشروع المباحثات، لرغبتها في عدم الظهور بمظهر من يعرقل الجهود الدولية للتوصل إلى تسوية بين أطراف الصراع، ولكن أياً منها لم يعلق آمالاً كبيرة على جنيف، ليس فقط لإدراكها بأن موقف النظام وحلفائه في روسيا وإيران لم يتغير قيدَ أنملة، بل أيضاً لليأس المتزايد من جدية الموقف الأمريكي.

بكلمة أخرى، ما جعل مباحثات جنيف ممكنة كان عجز الأطراف كافة عن إيجاد بديل، وليس الإيمان الحقيقي بأن المباحثات هي النهج الأفضل لإيجاد حل لأزمة الصراع المتفاقمة على سوريا، والمأساة الإنسانية التي ولدت من هذا الصراع .

باتساع نطاق المواجهة المسلحة ورفض قطاعات متزايدة من الشعب، لم يعد النظام قادراً على كسب الحرب، حتى مع الدعم الهائل الذي تلقاه من حلفائه في إيران وحزب الله .

ولكن هذا الدعم للنظام، إضافة للقيود التي وضعت على تسلح الثوار، والانقسامات في صفوفهم، التي تطورت إلى اشتباكات دموية بفعل الدور الذي تقوم به دولة العراق والشام الإسلامية، دفع الثوار إلى التراجع، وأضعف قدرتهم على الحسم خلال ٢٠١٣، التي افتتحت بتقدم كبير لهم على كافة الجبهات .

كما وجدت القوى الدولية، سيما روسيا والولايات المتحدة، نفسها عاجزة، أو غير راغبة، عن تغيير موازين الصراع لصالح النظام أو الثورة .

بيد أن الصورة التي ولدتها جولة المباحثات الأولى لا تدعو للتفاؤل .. منع موقف الائتلاف الصلب، والدعم العربي لهذا الموقف، إيران من التواجد واكتساب دور الطرف في الحل .. وحقق وفد الائتلاف الاعتراف به كممثل للشعب، وأجبر النظام على الجلوس معه على قدم المساواة .

كما تحقق إنجاز صغير في المباحثات حول الملف الإنساني .. ولكن لا شيء آخر تم إنجازه في الجولة الأولى .. وإن لم تبدأ الجولة الثانية المفاوضات حول هيئة الحكم الانتقالية، ستكون جنيف الثانية في طريقها لحائط مسدود .

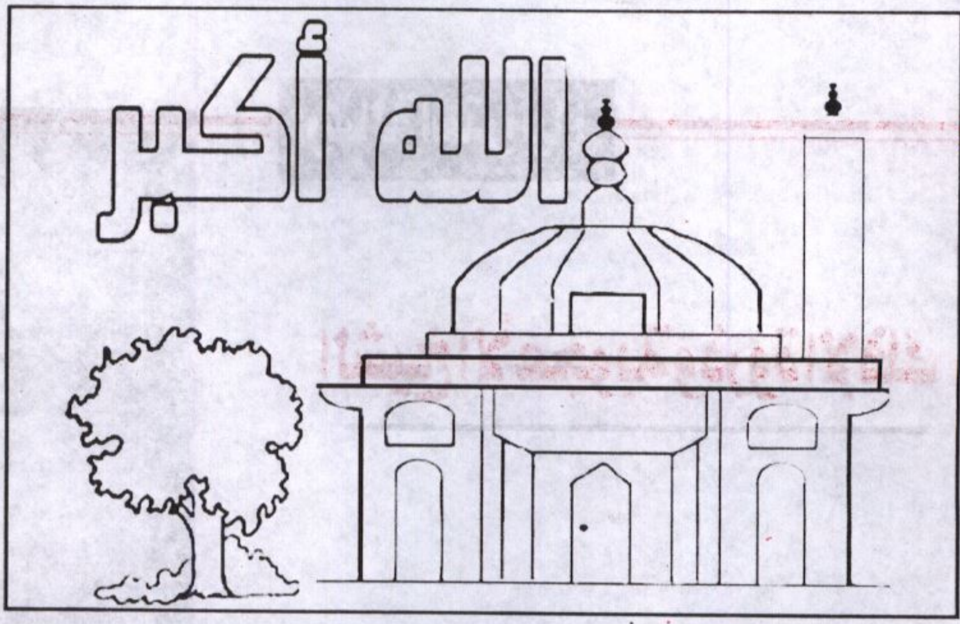

الخوف الآن أن تتحول المباحثات، كما حدث في مباحثات السلام الفلسطيني ذ الإسرائيلي من قبل، إلى مجرد عملية (process)، تنسى معها حقيقة ما يجري بالفعل على الأرض السورية، ويصبح الحرص، بالتالي، على استمرار العملية أهم بكثير من الحرص على وضع نهاية للأزمة وللوضع السياسي الشاذ في سوريا .

ثمة ثورة شعبية كبرى شهدتها سوريا، ونظام لم يتورع منذ اليوم الأول للثورة عن ارتكاب أبشع الجرائم ضد شعبه، بما في ذلك استخدام السلاح الكيماوي والبراميل المتفجرة على رؤوس المدنيين وعلى أحياء المدن .

خلال ثلاث سنوات، عمل النظام، وبصورة منهجية، على تدمير مقدرات سوريا، مدنها وبلداتها، وسبل الحياة الأولية لشعبها .. قتل النظام عشرات الآلاف، واعتقل وعذب وقتل تحت التعذيب أعداداً قد لا يعرف أحد حقيقتها .

مثل هذا النظام لا يجب أن يستمر في حكم سوريا .. هل يمكن أن تحقق مباحثات جنيف مثل هذا الهدف ؟ الواضح، في ظل موازين القوى الحالية، أنها لن تستطيع .

ثمة حاجة ضرورية لوضع نهاية لحال الانقسام والصراعات الداخلية في صفوف الثوار، وأن تصبح كل قوى الثورة المسلحة شريكة في الائتلاف الوطني، وأن تبذل جهود سياسية وعسكرية لتغيير الوضع على أرض المعركة.

بمعنى، أن يشعر النظام وحلفاؤه أن خارطة الصراع لا ترسم لصالحه، وأن لا مناص من التفاوض حول إنقاذ ما يمكن إنقاذه من حياة سوريا وشعبها .. بذلك فقط يمكن أن يعلق بعض الأمل على مباحثات جنيف، البعض القليل، ليس إلا.

***

الشيخ الأعجوبة وذروة الإفك

هو أعجوبة فقط من وجهة نظر المندهشين من توالى ظهور المشايخ الضالعين فى النفاق على سطح الأحداث .. ولكنه فى الحقيقة مجرد نموذج وافراز طبيعي لنظام دكتاتوري مستبد آخذ فى الصعود .. لن تجد فيه غير شيخين أحدهما ساقط فى حجر السلطة والآخر فى السجن، أو فى الطريق إليه .

محمد يوسف عدس
مستشار سابق بهيئة اليونسكو

إنه الشيخ الذى أفتى بأن الراقصة تموت شهيدة إذا ماتت وهي ذاهبة لعملها، وعلّل ذلك بأنها ذاهبة لتحصيل رزقها..! ويبدو أن جميع الأعمال عنده متساوية ؛ لا فرق فيها بين ما يرضى الله وبين ما يمليه الشيطان؛ فالكل يذهب لتحصيل رزقه ؛ يقولها صانع الخبز والزارع والصانع والمهني .. ولكن يقولها أيضا صانع الخمر وبائعها .. كما يقولها اللص والقوّاد وقاطع الطريق، ولاعب القمار .

وهو الشيخ نفسه الذى أفتى فى لقاء متلفز بأن البيرة ليست محرّمة لأنها مصنوعة من الشعير لا من العنب .. فلما استفسر منه المذيع قائلا : يعنى "النبيتْ بس هو اللى حرام ..؟؟ فلم يعترض الشيخ .. ثم اعترف أثناء الحوار بأن البيرة يمكن أن تؤدى إلى السُّكْرِ ولكنه تجنب الحكم بالتحليل أو التحريم .. وإنما لفّ ودار وقال كلاما لا يمكن أن يُفهم منه إلا أن المسألة تتوقف على احتمال الشخص وقدرته البدنية .. وهذه تختلف من شخص لشخص آخر .. يعنى مناط الحكم الشرعي - فى نظره - ليس منصبًا على المادة المُسْكِرة ولكن على قدرة الشخص واحتمالَه.

وهكذا وضع الشيخ الحكم الشرعي القاطع بتحريم الخمر فى متاهات الاحتمال والنسبية والمزاج الشخصي .. وليس هذا فكر داعية أو فقيه، وإنما فكر أفّاق مدلّس..

استنكر حجاب المرأة ولحية الرجل وسخر منهما .. كما سخر من المطالبين بتطبيق الشريعة، ولعن زمنهم فقال بالحرف :

"هذه أيام نُكُدْ" .. بل زعم الشيخ "أن من يطالبون بالحكم الإسلامي يأمرون بما لم يأمر به الله" .. معلّلا بأن الله لم يحدّد شكلا للحكم ولا أن يكون هناك خليفة !..

وهذا كلام متنطّعين؛ فالحكم الإسلامي يتعلق بمنظومة كاملة من المضمون والأحكام والمبادئ والقواعد الأساسية، ولا يتعلق بشكل الحكم مالم يخالف هذه المنظومة .. ولكن الشيخ لا يتورّع عن إنكار المنظومة نفسها عندما قال : "إن الله لم يفرض نظاما للتعامل فى هذه الحكومة ..

والمصيبة أنه محسوب على الفقهاء بل يقوم بتدريس أصول الفقه .. يعنى صاحبنا هذا ليس عنده مانع من إسقاط جميع الأحكام والمعاملات الشرعية التى وردت فى القرآن وصحيح السنة (من اعتباره) وهي من صميم الحكم الإسلامي ..

ثم يصل الشيخ إلى ذروة الإفك عندما تحدث فى مؤتمر للشرطة حضره الوزير محمد إبراهيم ؛ فبعد مقدمة طويلة عن قصة فرعون مصر يقول : كما بعث الله موسى وهارون رسولين لفرعون وقومه (الكفرة) بعث الله السيسى ومحمد إبراهيم إلى فرعون مصر الجديد، لحماية الدين .. وإنقاذِ المصريين من الطاغية وجماعته ..

هنا انفجرت القاعة بتصفيق حاد .. وصفق له محمد إبراهيم سعيداً بمنصبه الجديد ؛ إذ جعله رسولا .. مع أننا لم نسمع أن أنبياء الزمن القديم كانوا يصفقون فى الحفلات !..

أتساءل فقط أليس الإيمان بمحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ركنًا من أركان الإسلام ..؟! أم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد بشّر برسولين يأتيان بعده هما السيسى ومحمد إبراهيم .. واحتفظ بهذا سرا لنفسه لم يُطلع عليه إلا كبار الأفاقين ؟!.. هذا الرجل ليس واحداً من مشايخ القرى النائية غير مؤهّل فيُعذر لجهله .. بل هو الأستاذ الدكتور مؤلف لعدد من الكتب منها :

١- حقوق الإنسان في الإسلام ..

٢- المعاملات المالية المركبة .

٣- الأزمة المالية والحلول الإسلامية .

٤- موسوعة فقه أحكام المخدرات) .

أربعة كتب فى فقه المعاملات؛ كلها من صميم السياسة الإسلامية فى الحكم .. ولكنه - مع هذا - ينكر قيام حكم إسلامي ويهزأ بمن يدعو المسلمين إليه .. ويقول : "إنه يأمر بما لم يأمر به الله" .

ليس بغريب فى زمن الاستبداد والفساد أن يرتقى أمثاله فى وظائفه الجامعية بالأزهر حتى منصب عميد كلية .. ويحصل على جوائز علمية عديدة من مبارك ودول عربية أخرى .. ويشارك فى عشرات المؤتمرات .. وهو عضو فى لجان أكاديمية واجتماعية كثيرة منها عضوية "لجنة أخلاقيات البحوث العلمية" .. تصورّ !!.. هذه الأخلاقيات التى لم يرْعَ منها فى كلامه ذرّة واحدة ..!

نحن إذن نتحدث عن نجم من نجوم المجتمع الديني والأكاديمي .. يجيد الخطابة باللغة العربية الفصيحة .. مهووسٌ بالجدال والمخاتلة والإيقاع بالخصوم .. ويدافع عن فتاويه وافتراءاته بحماس وحرارة .. لذلك لم أندهش أن يكون موضع تقدير ومكافآت، وجوائز تنهمر عليه من سلاطين العرب ؛ فهو الدرع الواقى لكل الدكتاتوريات العربية وانحرافاتها واستبدادها .. وضد تطلّعات شعوبها المتمرّدة الثائرة .. وضد توجُّهات المصلحين والراغبين فى التغيير .. والمتطلّعين إلى الحرية والكرامة والانعتاق من الظلم والتبعية ..

وهو بصفة خاصة ضد الإسلاميين الذين يريدون أن يبنوا مجتمعات ديمقراطية تكفل حرية الإنسان المسلم .. وتحقق رغباته فى أن يعيش آمنًا فى ظل نظام سياسي لا يتصادم مع مبادئه الأخلاقية ومشاعره وممارساته الدينية ومقدساته ..

اشتهر عن هذا الشيخ الأعجوبة قوله "لا يجوز الحكم بالدين؛ لأن الدين علاقة بين الله والناس" .. وقوله : "لا يوجد في الإسلام شيء إلزامي، إلا ما التزم الإنسان به بنفسه" ولأنه يفترض "الحمورية" فيمن يستمعون إليه على الفضائيات، لا يعبأ بالمنطق فى كلامه ؛ ففى العبارة الأولى لا توجد رابطة سببية بين شطريها ، فهى

ساقطة من الناحية المنطقية ..

وفى العبارة الثانية يزعم أنه لا شئ فى الدين ملزما للمسلم .. وهو كلام عجيب؛ كنت أفهم لو كان الرجل صادقا مع الله - أن يتحدث عن درجات : الواجب والمندوب إليه والمكروه والمنهيّ عنه والحرام .. إلى آخره .. أو يتحدث عن حقيقة أن الإنسان حر فى اختياره : إما أن يؤمن ويلتزم وإما أن يكفر ويتحمل مسئولية اختياره .. أمّا أن يقول :

"لا شئ فى الإسلام ملزم إلا ما ألزم الشخص نفسه به" فهي عبارة مطّاطة مضلّلة .. لا يقول بها إلا شاعر صعلوك .. أو منفلت متمرّد على دينه وربه .. لا أستاذ فى الفقه والأصول ..

لقد ضيّعْتَ الفقه يارجل .. وضيّعت الأصول وضيّعت الدين .. بمبالغاتك .. وافتراءاتك على الله وعلى رسول الله ؛ وأنكرت ما هو معلوم من الدين بالضرورة

: عندما أسقطت ختام النبوة والرسالة عن محمد صلى الله عليه وسلم، بنسبتك الرسالة إلى السيسى ومحمد إبراهيم، وبتشبيهك لوزير الداخلية بالنبي إبراهيم عليه السلام الذى أنقذه الله من نار الكفار .. كلام لا يجرؤ عليه إلا منافق أفّاقِ ..

لقد بحثت عن سر الكراهية العميقة للإخوان المسلمين ؛ واستماتته فى تمجيد رجال النظام .. لدرجة وصفهم بالأنبياء؛ فعلمت أن الشيخ نشأ فى أسرة فقيرة ؛ كان - وهو لا يزال طالبا أزهريا - يرتزق من عمله كإمام فى مسجد بحيٍ فقير على حاشية مدينة المنصورة .. أقول : ليس فى الفقر عيب ولا فى العمل .. ولكن العيب فى الاختيار ؛ وقد اختار الحرام من أول بادرة لاحت له ؛ فقد كان طامعًا متسلّقًا بطبعه؛ لا يأبه من أي مصدر يأتيه المال .. ولذلك رحب بالعمل مع أمن السلطة بكتابة التقارير السرية عن الإخوان المسلمين الذين يترددون على مسجده، ويواظبون على صلاة الفجر والجماعة .. وقد دخل السجن بسببه كثير منهم .. ولذلك ترعبه فكرة انتقام الإخوان منه إذا رجعوا إلى السلطة ..!

محمد يوسف عدس

مستشار سابق بمنظمة اليونسكو

ملبورن - ستراليا

myades34@gmail.com

سؤال الهُوية !!

هويتنا الإسلامية فى مفترق الطرق

تأليف أ / د. محمد السيد الجليند
أستاذ الفلسفه الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة
نشر / المكتبه الأزهريه للتراث ط١ ١٤٣٢ هـ / ٢٠١٢م

عرض : زغلول عبد الحليم

يأتى هذا المؤلف فى وقته، بعد ازدياد الضجيج الإعلامى الذى تقوم به قلة ترفض كل ما هو دينى وتعمل جاهدة على إثارة البلبلة والتشكيك فى كل شئ حتى فى نوايا الناس، بل أزيد وأقول إن أعمال القلة المذكورة جاءت وفق اتفاق على تزييف وعى الأمة حتى تفقد الإحساس بهويتها الحضاريه ومما يؤسف له أن نشاط هؤلاء بدأ منذ الغزو الفرنسى لمصر ولا يزال هذا النشاط يعمل حتى الآن تحت راية كاذبة مضلة اسمها التنوير وما هو إلا إظلام وتجهيل يريد بالأمه العودة إلى الوراء، نكاية فى الإسلام كعقيدة وشريعة ورغم كل محاولات التيار الدينى الرئيسى الذى يمثل الأغلبية فى تقريب المسافات إلا أن رواد التيار المخالف عند موقفهم من رفض الدين بالكلية حتى الدكتور مراد وهبه وصف الشريعه بالماضوية وهو تعبير لم نسمع به من قبل ويبدو أنه به لصيق .. ولا أدرى كيف يتجرأ الدكتور مراد وهبه على الحديث فيما لا يعنيه وهو أمر الشريعة علاوة على عدم تخصصه فى هذا الشأن .

وقد تصدى الأستاذ الكبير فهمى

هويدى لهذه الهجمات بقوة منطقه التى يعرفها قراؤه وعشاق أدبه ونحن منهم .

وفى هذا الجو المشحون بالتوتر والخلاف بين التيار الدينى والتيار المخالف كان لابد أن يظهر البطل ليقف المعتدى على دين الله عند حده، فبين أيدينا الآن كتاب (سؤال الهوية هويتنا الإسلامية فى مفترق الطرق) من تأليف الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة .. دار العلوم التى تخرج فيها الكثير من الأدباء الكبار، والأساتذة العظام مما لا نستطيع حصرهم على وجه الدقة، ومنهم الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند صاحب (سلسلة تصحيح المفاهيم والتى صدر منها الكتاب العاشر (موضوع العرض) إلى جانب مؤلفات أخرى فى تحقيق التراث مذكورة على التفصيل فى نهاية الدراسه .

والكتاب موضوع العرض مقسم إلى :

١/٤ سؤال الهُوية

٢/٤ هُويتنا الإعتقادية

٣/٤ هُوية الأخلاق الإسلامية

٤/٤ هُوية الفلسفه الإسلامية

السؤال الأساسى الذى يطرحه الكاتب هو :

سؤال الهُويّة وقد وضعه على الغلاف الخارجى للكتاب

ووضع السؤال على الغلاف الخارجى للكتاب فوق صورة فوتوغرافية لرجل بلباسه المعروف متكئا على عصاه التى تقارب رأسه .. هى إجابة شافية للسؤال الذى عرضه الكاتب واختيار موفق للتعبير عن المضمون الذى يحتويه الكتاب .

بالاضافة إلى التشكيل الزخرفى الذى يعبر عن الفن الإسلامى ولا ننسى بشائر النور فى نهاية الطريق .

عرض الكتاب

سؤال الهوية

يبدأ المؤلف فى هذا الجزء بالحديث عن ثورة يناير المجيدة وماهية هذه الثورة وما أبعادها السياسية والاجتماعية وما آثارها على المنطقة العربية المحيطة بها خاصة أن مصر بتاريخها الطويل تملك مفاتيح التأثير فى المنطقة بشكل مباشر أحيانا وغير مباشر أحيانا أخرى .. وقد كان المؤلف صريحا جدا فى تناوله وقال أن البعض تحفظ والتزم الصمت على خوف من عدوى التأثير ! إنها قوة العقيدة التى يتمتع بها الدكتور الجليند فقد وصف الثورة بالمباركة وانها قضت على حالة الإنكسار النفسى الذى سيطر على الشباب حيث بدأ التفكير فى المستقبل وبدأ التفكير فى مشروع النهضه الذى تتبنى الثوره كمنهج عمل قابل للتطبيق .. وأكد سيادته أن الأمة

المصرية تملك من الثوابت والقيم الأصيلة الراسخة فى تراثها والمعبرة عن خصوصياتها ما لا يحتاج إلى اجتهاد ولا إعمال ذهن، ولم تكن هذه الثوابت فى يوم من الأيام محل خلاف بين أبنائها سواء كان مسلما أو مسيحيا .. وهذه الثوابت التاريخيه ليست فى حاجة إلى نقاش أو حوار بين القبول لها أو الرفض لأنها تشكل معالم أساسية لهوية مصر وذلك مثل :

(النص فى الدستور المصرى على أن مصر دولة مسلمة، لغتها العربية، دينها الإسلام، وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للدستور والقوانين وأن انتماءهما عربى إفريقى) .

ولكن بعض المنتسبين إلى النخبة تجاوز ما ينبغى أن يشغل المفكرون الوطنيون أنفسهم به من البحث عن أفضل الطرق لنهضة البلاد إلى التساؤل، بل التشكيك فى هوية مصر ! يقول الدكتور الجليند عنهم إنهم سقطوا فى مستنقع الفتنة .

إن الذى يتابع هذه الأصوات منذ عقود طويلة يلاحظ أنها هى هى نفس الأصوات، نفس المعجم اللغوى فى الصحف وأوضح أن حملة التشكيك بدأت فى كل ما هو إسلامى بدأت على أيدي المستشرقين وكان أخطرها التشكيك فى الهوية المصرية .. وأوضح أن كتاب مستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين كان له الأثر الكبير فى إشاعة هذه الفوضى ومحاولة تزيف الوعى وتغيبه بالكلية وكان الدكتور الجليند واضحا خاصه فيما أثبته فى الهامش رقم (١) فى الصفحة رقم (١٢) بخصوص ما يكتب فى جريدة الأهرام المصرية وكأنهم تبنوا التشنيع على كل ما هو إسلامى والفخر بما هو علمانى أو ليبرالى لا دينى .

إن السؤال عن الهُوية يعنى السؤال عن الخصائص التى تميز الحضارات والثقافات الخاصه بكل شعب، هو سؤال عن الوعى بالذات الثقافية والحضارة التى يعتز بها الأفراد ويدينون بالولاء لها والتشبث بها والافتخار بها بين الأمم والدفاع عنها بالقلم أو السيف إذا لزم الأمر .. هو سؤال عن مكونات الثقافة الاجتماعية ومفردات الأخلاق المؤثرة فى سلوك الفرد والجماعة .. هو سؤال عن فلسفة الحكم وغاياته ومقاصد النظرية السياسية الحاكمة لحركة المجتمع وعلاقة الحاكم برعيته هو سؤال عن الضابط الجامع لكل عناصر الحركة فى الحياة اليومية ومقاومتها العقائدية والاخلاقية التى تتباين فيها الشعوب وتتمايز الحضارات فيما بينها .

ويستطرد أستاذنا الكريم قائلا : لقد ظل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة عشر عاما فى مكة يعمل على صياغة الإنسان على نحو جديد مختلف تماما عن

كان عليه فى الجاهلية صياغة تستظل بنور العقيدة التى تدور رحاها حول قطب التوحيد الذى منه تبدأ حركتها وإليه تعود وينزل القران الكريم لتصحيح عقائد الجاهلية لتحمل الأمة شعلة التوحيد .

إن أساس هوية المسلم أنه صاحب عقيده والأمة التى ينتمى اليها الفرد المسلم أمة عقيدة يتفرع عنها ويتفرع منها أركان هويته ومكوناتها التى تشكل شجرة العقيده وقد شن الدكتور الجليند هجوما فى معظم الصحف السيارة وخاصة جريدة الاهرام فى محاولات كتابها تزييف وعى المسلم وكان لكتاب ما هى النهضة لسلامة موسى الأثر السئ، بل الأسواء بدعواته المشبوهة .. ويطرح الدكتور الجليند هو السؤال : هل الهوية الإسلامية لشعب مصر عصر يُراد لنا أن تترك مكانها ومكانتها لهوية الثقافات الوافدة ؟!

ماذا يريدون بمصر ؟ سؤال آخر للدكتور الجليند .

انتهى رأي الدكتور الجليند فى هذه المسأله إلى الاتى :

١- الإسلام لم يعرف الدولة الدينية .

٢- لا وجود لكلمة مدنيه فى أدبيات السياسه .

٣- العلمانية تعنى إلغاء الدين .

٤- الليبرالية مفهوم غامض لا معنى له .

ولكن حلفاء الشيطان ورواد الخمارات لا يعجبهم كلام العلماء .. فقط هم فى الموقف الرافض لأى مرجعية دينية أو قيمية تطبيقا لما جاء فى دائرة المعارف البريطانية عن تعريف العلمانية بأنها (حركه اجتماعية تهدف إلى صرف وتوجيه الناس عن الاهتمام بالآخره إلى الاهتمام بالدنيا وحدها) وهو مفهوم مخالف تماما لما يأمرنا شرعنا ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ .... (القصص (٧٧) .

إن النظريات السياسية للأمم والشعوب تتباين فيما بينها بحسب تباين مرجعيتها الثقافيه والاجتماعيه وبحسب نظرتها الفلسفيه العامه للوجود والانسان فى هذا الكون .. مع وجود القدر المشترك العام بين كل النظم .

ولا يزال سؤال الدكتور الجليند عن الهويه قائما :

ماذا يريدون لمصر ؟، هل يريدون ان تكون علمانية لا دينية بلا مرجعية دينية حتى يتاح للمشرع أن يرضى رغبات هؤلاء ويُسن القوانين والتشريعات التى تشبع رغباتهم ويرد سيادته بالآتى :

إن هويات الأمم وخصوصياتها لابد أن تميزها عن هويات غيرها من الشعوب والأمم الأخرى تتميز بها فى عقائدها، فى علاقاتها الاجتماعيه وفى نظرتها للوجود،

وفى قيمتها الأخلاقيه التى تتجسد فى سلوكها على مستوى الأفراد والجماعات وتشكل منظومة العلاقات الاجتماعيه بين الأفراد .. وهويتها الإسلامية لابد أن تظهر وتتجسد فى المعالم والمظاهر العامة لثقافة الأمة لكنها أكثر ما تكون وضوحا فى :

٢ / ٤ هُويَتنا العقيدية

٣ / ٤ هُويَتنا الأخلاقية

٤ / ٤ هُويَتنا الفلسفية

وهي المسائل التي تبرز أهم خصائص الهُوية الإسلامية في النظرة العامة إلى الإنسان والوجود والأخلاق .

عن هويتنا الاعتقادية

إن عقيدة التوحيد هي قطب الرحى في الخطاب الإلهي لجميع الرسل والأنبياء كلمتهم على ذلك واحدة من أولهم إلى آخرهم ونداؤهم إليها واحد وهي العقيدة الجامعة لدين الأنبياء والمرسلين كما تواصى بها جميع الأنبياء فيما بينهم .. ابتداء من أبى الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وتوارث هذه الوصية ذريته من بعده ودعا بها موسى (عليه السلام) ربه كما دعى إليها عيسى (عليه السلام) قومه فقال لهم ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّه ﴾ .. واستجاب لها الحواريون فقالوا لعيسى عليه السلام ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّه آمَنَّا بِاللَّه وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٥٢)، وكانت هذه العقيدة هى الدعوة الجامعة على لسان أبي الأنبياء إبراهيم لذريته من بعده فقال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .. (البقرة : ١٢٨) فاستجاب له ربُه وبعث في الذرية من يحمل لواء هذه الدعوة الخاتمة دعوة التوحيد ملة إبراهيم حنيفاً وجاءت الرسالة الخاتمة تصديقاً لدعوة الرسل السابقين إلى التوحيد الخالص لله وحملت شعار الأنبياء السابقين ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ..... (الأنعام : ١٦٢) .. ﴿ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .. (الأنعام : ١٦٣) .

ومن ثم فقد استقرت عقيدة التوحيد على أنها دين جميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ..... ﴾ .. (الشورى ١٣) كان الاعتقاد فيها والإيمان بها هو الحد الفاصل بين الإيمان بين الأنبياء قاطبة والجحود بها .. قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ... ﴾ .. (البقرة ١٣١) وأصبحت هذه العقيدة أساساً ومحوراً لضبط حركة الإنسان اليومية من صباحه ومسائه، في غدوه ورواحه وفي

علاقاته المختلفة سواء في ذلك علاقته بالله والكون، علاقته بنفسه وبالمجتمع وما فيه وجسد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأسس الجامعة في قوله : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) (ص ٥١ من سؤال الهوية) .

والدكتور الجليند كأستاذ للفلسفة الإسلامية كان رائعاً كعادته في تناول مسائل الإيمان بالغيب، الإيمان بالقدر، الإيمان بجميع الأنبياء وكتبهم وإن إنكار الواحد منها كالإنكار لجميعها وأن كلها كلام الله منه بدأ وإليه يعود وأن ما نالته يد التحريف منها ليس مما نزل الله به وحيه على رسله وما صح منها يصدق بعضه بعضاً وأن القرآن آخرها جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة وقد (كتب العلامة محمد عبد الله دراز في هذه النقطة كتاباً يعد من المراجع الهامة في هذه المسألة اسمه الدين) انتهى (ز) وأوضح لنا الدكتور الجليند خصائص العقيدة الإسلامية من حيث إنها ربانية المصدر فطريا وسطية برهانية شاملة لأمور الدين والدنيا كما أنها ضرورة اجتماعية وأكد على أن سنة التدافع أمر واقع ومشاهد في جميع المجتمعات قد يسميه البعض بصراع الطبقات كما في بعض المذاهب .. إنه واقع يعيشه المرء وقد أشار إليه القرآن الكريم باعتباره سنة من سنن الله في الاجتماع البشري قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ .. (هود : ١١٨) وأشار القرآن الكريم أيضاً إلى أن هذه السنة ماضية في في الاجتماع البشري إلى قيام الساعة تقتضيها طبيعة العمران والاجتماع ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ .. (البقرة ٢٥١)

وقال أيضاً ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًا ﴾ .. (الزخرف : ٣٢) ولذلك كان لابد من وضع ضوابط تكون فوق مستوى الشبهات، فوق مستوى الأهواء وهذا لا يتحقق أبداً إلا إذا كان مصدر هذه الضوابط متعالياً عن أهواء البشر وأغراضهم، وذلك لا يتأتى إلا من خلال الوحي الإلهي، لقد شغلت كل القوانين الوضعية في تحقيق المقاصد في المجتمعات وإن كانت المقاصد الكلية للشريعة تأخذ دائماً الصفة الدينية إلا أنها في حقيقتها وضعت لتحقيق مصالح المجتمع الإنساني فهي مقاصد اجتماعية أضفى عليها الشرع صفة القداسة الدينية بنسبتها إليه لتستقر قداستها في قلوب المؤمنين، إن الوحي السماوي يستمد هيبته من نزاهة مصدره، وقد لمس الأستاذ الدكتور الجليند نقطة هامة جداً تتعلق بالفارق الجوهري بين

الضوابط الشرعية (الأوامر الإلهية) وما يطلق القوانين الوضعية وهي أن الأوامر الإلهية تستمد هيبتها من واضعها سبحانه وتعالى أما ما يطلق عليه القوانين الوضعية فمن أين تأتي بالهيبة .. إن شبكة العلاقات الاجتماعية لو تأسست على المبادئ العقائدية فإنها تجعل من المجتمع كله أفراداً وجماعات حراساً على هذه المباديء إنها المسئولية الاجتماعية التي لا تقتصر على طرف واحد .

إن سر الوجود لم يكشف عنه العلم لأن ذلك ليس من وظيفة العلم ولا من مهمة العلماء لأن مهمة العلم الكشف عن القوانين التي تحكم علاقة الظواهر الطبيعية وكيف يفيد الإنسان منها ويستثمرها لصالحه .. إن مهمة العلم وصف الظاهرة وليس وظيفته لماذا كان هذا الوجود أصلاً ولماذا كان الوجود على هذه الكيفية .. ولماذا تتحول الطاقة في العين إلى قوة باصرة ؟ سبحان الله العلي العظيم !! إن الوحي هو الذي يقدم لنا تفسيراً مقنعاً لعلم الوجود وغايته والوحي هو الذي يقول للعقل إن هناك حياة آخرة بعد الحياة الدنيا يكتمل بها حكمة الوجود الإنساني يكتمل بها الموقف المعرفي للعقل .. يكتمل بها منظومة الوجود كله في ضوء من العدل الإلهي الذي به يكون للوجود معنى وللأخلاق أثر في سلوك الإنسان، ولو كان الوجود الإنساني قاصراً على هذه الحياة فقط لكان وجود الإنسان فيها هو البؤس بعينه ! (لذا سقط الفكر المادي كله وقذف به بعض كبار الملاحدة إلى مزبلة التاريخ التي امتلأت عن آخرها .. انتهى ز.) إن قيمة الحياة الإنسانية لا يكون لها معنى إلا في الاعتقاد بما جاء به الوحي من الإيمان باليوم الآخر كضرورة دينية وأخلاقية وهذا الأمر ليس من مهمة العلم الكشف عنه وليس من اختصاص العلماء البحث فيه وإنما هو نور الوحي وهداية الأنبياء وإذا كان ميزان العدالة قد اهتز في يد البشر في حياتهم الدنيا فإنه غير قابل للاهتزاز في يد الخالق سبحانه .. ونقول لأصحابنا من رواد قراءة النص قراءة عصرية، نقول لهم : إن قضية الوحي في أساسها لا يملك العقل برهاناً على إنكارها (والكلام مهدى على الجمله لرواد قراءة النص قراءة عصرية وعلى رأسهم رواد المدرسة التفكيكية والتى هزمها بضربة قاصمة أستاذنا الدكتور عبد العزيز حمودة رحمه الله رحمة واسعة) انتهى (ز) ويستطرد الدكتور الجليند قائلا : من قال إن التجربة هي الوسيلة الوحيدة لإثبات صحة الرأي أو خطأه أن هناك كثيراً من المعارف اليقينية لا تخضع في ذاتها للتجربة ولا يملك أحد إنكارها .

***

عن هوية الأخلاق الإسلامية

من أهم ما يميز الأخلاق الإسلامية ارتباطها الوثيق بالدين في أوامره ونواهيه فما أمر الشرع إلا بما هو أخلاقي وما نهى إلا عما هو قبيح، ومن هذه العلاقة تستمد سلطة الالتزام الخلقي قوتها من سلطة الدين وقوة تأثيره في القلب الذي يمتلئ بنور الإيمان انعكاس ذلك على سلوك الأفراد التزاماً بالقيم الخلقية وتنفيذ للأوامر الدينية (انظر إلى حجم المأساة التي تنتج من إبعاد دين الله هم حكم دنيا الناس ! .. انتهى ز.) وقد حذر القرآن الكريم من سوء العاقبة للأمم التي فرطت في عبادتها الأخلاقية فانتشر فيها الظلم وغاب عنها العدل، وغابت عنها المساواة وحلت المحسوبية ووسد فيها الأمر إلى غير أهله وضاعت الحقوق وضيعت الأمانات وأكلت أموال الناس بالباطل، كل ذلك أو بعضه كفيل بضياع الأمة وزوال المُلك .

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ... ﴾ .. (الكهف : ٥٩) ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ .. (الحج : ٤٥) ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ .. (الأعراف : ٤٤) ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .. (إبراهيم : ١٥) .

إن هذا الربط الواضح بين ضياع الأوامر الأخلاقية وهلاك الأمم يثير الانتباه إلى أهمية هذا القانون الكوني الذي أشارت إليه آيات القرآن وجعلته جزءاً من العقيدة الإسلامية وهذا يقودنا إلى التساؤل حول أحكام الشرع ومستوياتها وما تشمل عليه من معان أخلاقية أساسية في بناء المجتمع وما تعبر عنه من أصول وقواعد ينبغي الأخذ بها في مناهج التربية في مؤسساتنا التعليمية .

إن من أهم خصائص الأخلاق الإسلامية خاصية الجمع بين المادة والروح لأنها مستمدة أصلاً من قوة الإيمان بالعقيدة الدينية التي جعلت المبادئ الأخلاقية جزءاً أساسياً من شعائر الدين وأوامره والرسول صلى الله عليه وسلم قد ربط بين السلوك الأخلاقي وكمال الإيمان ربطاً محكماً فجعل صلوات الله عليه وسلامه التخلق والسير على مقتضى الأوامر الأخلاقية من كمال الإيمان، ولقد جاءت الأوامر الإلهية لتؤكد هذه المعاني وتجعل منها امراً شرعياً يتعلق به المؤمن ليثاب عليه في الآخرة إذا فعله بنية القربى إلى الله تعالى والأخلاق الإسلامية معيارية تهتم بالبحث فيما يجب أن يكون عليه سلوك الإنسان عكس الأخلاق الوضعية التي تهتم بالبحث فيما هو واقع من السلوك الإنساني فهي دائماً تحث الإنسان على التحلي بما هو أفضل

من القيم والمبادئ. أما الأخلاق الوضعية فهي تهتم فقط بالبحث في العادات والتقاليد تهتم بما هو كائن فعلاً! أما الأخلاق الإسلامية، والتي تستمد مثالياتها المعيارية من كونها إلهية المصدر غايتها الارتقاء بالفرد والمجتمع، وقد يضطر المرء إلى فعل المحظور بجوارحه وهنا ينبغي أن يكون مقروناً بكراهية القلب ونفوره من الفعل لأنه لا سلطان على القلوب إلا الله وثبات القلوب على كراهية المحظور شرعاً دليل على امتلاء القلب بمعاني الإيمان والخوف من الله وإن ارتكبت الجوارح الفعل المحظور اضطراراً.

إن إيجاد التوازن والتنسيق بين كل ميول الإنسان ورغباته تجد لها مكاناً بارزاً في الإسلام وقد وضع النظم والمبادئ التي يستطيع بها الإنسان تهذيب غرائزه وتنمية ملكاته وتنمية الجوانب الخيرة في طبيعته وترويض الشرير منها، وقد لفت الأستاذ الدكتور الجليند نظر القارئ إلى أهمية كتاب "دستور الأخلاق في القرآن الكريم"

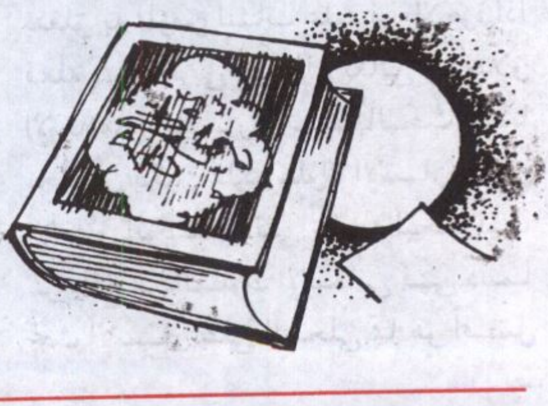

للعلامة محمد عبد الله دراز وبدورنا نشير أيضاً إلى كتاب (عيوب النفس ودواؤها) للدكتور الجليند.

هوية الفلسفة الإسلامية

يؤكد الدكتور الجليند على أن حضارة الغرب وفلسفته تتأسس على فلسفتهم في المادة ومبادئها وتنبثق عنها لتعود إليها فهي مناقضة للعقيدة الإسلامية وفلسفة الإسلام لتعتمد في مرجعيتها على القرآن الكريم الذي ما زال وسيظل العمود الفقري للفكرة الإسلامية (فلسفة وحضارة وثقافة وعلوماً، فكراً واعتقاداً وسلوكاً) ومن هنا بدأت مناهجها الفلسفية المعاصرة ممزقة بين انتمائين متناقضين، انتماء غربي وانتماء إسلامي، أدى بجيل الشباب إلى الانحراف الفكري والعقدي والسلوكي وأفرز جماعات متطرفة اجتماعياً وفكرياً، وأخذت خصوصية المصطلح الإسلامي تذوب وتتلاشى في المصطلح الجديد الوافد.

إن أمتنا الإسلامية تعيش بؤرة الصراع العالمي فكراً وثقافة وحضارة وما لم تتشبث بخصوصياتها الحضارية فإن عوامل الفناء تتسارع لمحو هذه الخصوصية والقضاء عليها.

إن فلسفتها الإسلامية مؤسسة على منهج رباني يجعل للوجود معنى وللإنسان

وظيفة فالوجود لم يخلق عبثاً لا غاية له ولا هدف منه بل له غاية مقصودة وهدف مطلوب وعالم الشهادة في فلسفتنا لم ينفصل في حكمته الوجودية عن عالم الغيب وليست المادة في الفلسفة الإسلامية مستقلة في وجودها عن قانونها الغيبي الحاكم لها والتحكم فيها كما هو الشأن في المذاهب المادية قديمها وحديثها .

الوجود في فلسفتنا ليس مبتوت الصلة بخالقه وإنما هو آية دالة على خالقه وتحمل مفرداته دلائل صفاته .. والوجود يحمل في قوانينه برهان العقل على فساد رأي القائلين بالمصادفة، والإنسان في فلسفتنا ليس كائناً بيولوجياً يعيش ليأكل إنما هو كائن متسام جمعت بنيته الوجودية بين الجانب الترابي ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ .. (نوح : ١٧) والجانب الروحي ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (الحجر : ٢٩) وهو مكلف بمقتضى إيمانه أن يوفق بين هذين الجانبين (الترابي والروحي) في سلوكه البشري وتلك خصوصيته الإنسانية دون سائر الكائنات الأخرى وأخيراً إن النظر الفلسفي أمر إلهي .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

...... (العنكبوت : ٢٠) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .. (الدخان : ٣٨-٣٩) .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ .. (المؤمنون : ١١٥- ١١٦) .

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

.... (الطارق : ٥) .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .. (الذاريات : ٥٦) .

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ .. (لقمان : ١١) .

ويختم الدكتور الجليند كتابه الرائع بقوله : (.. وأصبح من الضرورة أن نتساءل حول كثير مما يلقى في قاعات الدرس الأكاديمي وما علاقته بالمسلم المعاصر وما دور الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام في النهوض بالواقع الذي نعيشه).

وأنا بدوري كواحد من تلامذة العالم العامل الأستاذ الدكتور / محمد السيد الجليند أسأل هل إلى سبيل من خروج من هذا الواقع البئيس !؟ اقول نعم .. إن إجابة الدكتور / الجليند على سؤال الهوية هو المدخل الصحيح لتغيير واقعنا البئيس.

***

أطفال الشوارع .. وتراب الطريق

إبراهيم الشرقاوي سنه عشر سنوات، لكن من يراه يظن أنه في الثامنة عشرة من عمره، ليس بسبب ضخامته، فجسمه نحيل، ولكن بسبب نظرات عينيه العميقة، التي توحي أن وراءها خبرات وتجارب قاسية، أكسبته تلك النظرة الجامدة المتشككة في كل شيء.

شعر كث وملابس رثة، إذا نام على الأرض لن تستطيع عيناك تمييزه، لأنه ببساطه .. جزء من تراب الطريق.

كل همه في حياته هو مطاردة المهملات البلاستيكية، فهو يقوم بجمعها من كل مكان لكي يقوم ببيعها في نهاية يومه الطويل الشاق لإحدى ورش البلاستيك، التي تشتري منه الكيلو بجنيه ونصف، يطارد المهملات البلاستيكية في كل مكان ؛ ينزل إلى الترع من أجل الحصول على ماسورة بلاستيكية عائمة على صفحة المياه.

إبراهيم توفيت والدته منذ ٤ سنوات، ثم توفي والده منذ عام ونصف العام، ويعيش مع أخيه - جامع قمامة أيضًا - مع ٤ أفراد في عشة صفيح ضيقة بجوار المقابر، ووسيلته الوحيدة للحياة في هذا العالم هو الحصول على المزيد من مخلفات البلاستيك يومًا بعد يوم.

كان إبراهيم يعمل في السابق في ورشة نجارة، لكنه كان يتقاضى ١٠ جنيهات في الأسبوع، وهو ما لم يكن ليسد حاجته حتى من الطعام فقط، لذا قرر النزول إلى الشارع .. وفي الشارع لم يكن وحده، فقد انضم إلى أعداد متزايدة من الأطفال الذين بدءوا يرون في الشارع مهربًا من المشكلات وملجئًا في نهاية اليوم أيضًا.

إبراهيم لم تفارقه الشكوك مرة واحدة أثناء حديثه، بدأ في قضم أظافره وهو يتحدث عن حياته وعن ماضيه وعن ظروفه المأساوية؛ فهو يخشى من كل شيء: يخشى من الغد، يخشى من عصابات

الأطفال الأكبر سنًا منه، كما يخشى من الشرطة التي تتعقبه وتودعه الحجز الاحتياطي ومن ثم تعرضه على النيابة هو وأمثاله بحجة أنهم "عرضة للانحراف".

وفي الشارع أطفال كثيرون، ليس معظمهم ممن يبحث عن رزقه مثل إبراهيم، ولكن غالبيتهم العظمى من أولئك الأطفال الذين يهربون من كل القيود، إلى ذلك العالم الجديد الذي فيه كل شيء مباح.

تشير أرقام الجمعيات الأهلية في مصر إلى وجود ما يقرب من ٢ مليون طفل شوارع، مما يمثل ظاهرة خطيرة تهدد أمن المجتمع، وتجعلهم قنابل موقوتة تسير اليوم على قدمين صغيرتين، ولكن في الغد، ستكون الأقدام قد كبرت .. والخبرات الإجرامية أيضًا.

وأولئك الأطفال الصغار .. بقدر ما هم ضحايا هم جناة، فقد ذهبت براءة الطفولة وحل محلها الانحراف.

يصنف الأستاذ أحمد سمير كبير الأخصائيين الاجتماعيين بالجمعية المصرية لرعاية الأطفال بالإسكندرية أطفال الشوارع - ثلاثة أصناف: "الصنف الأول مثل التوربيني ومن على شاكلته، وهم يمثلون عصابات إجرامية يصعب إعادة تأهيلهم في المراكز الاجتماعية التطوعية، ويرفضون من الأساس الذهاب إلى تلك المراكز، ويفضلون حياة الشارع والإجرام على الانتظام في أي مؤسسة اجتماعية .. والصنف الثاني هم الأطفال المعرضون للانحراف الذين يتم العثور عليهم في الشوارع ويتم بحث حالتهم الاجتماعية ومحاولة إرجاعهم إلى أسرهم مرة ثانية وأحيانًا تنجح هذه الجهود .. أما الصنف الثالث فهم أولئك الأطفال الذين لا تنجح جهود إعادتهم إلى أسرهم ليتم استيعابهم في دور الرعاية الاجتماعية، والتي عادة ما لا تكون ملجئًا دائمًا لهم بسبب عدم قدرتها على فرض قيود رقابية عليهم".

أما الصنف الأول فيحترف الإجرام تلقائيًا بسبب طبيعة العيش في الشارع الذي لا يحكمه إلا قانون "البقاء للأقوى"، وبمرور الوقت يتحولون إلى الشذوذ الجنسي ضد الأطفال أيضًا، ويحاول ذلك الصنف فرض سيطرته على أطفال الشوارع الآخرين الذين يصبحون أتباعًا لهم، ويدخلون في تلك الشريحة رويداً رويداً وينضمون لتلك الحلقة الجهنمية التي يصعب الإفلات منها إلا على يد الشرطة، أو بالموت تحت عجلات أحد القطارات.

يقول الأستاذ خالد السيد الباحث الاجتماعي والمشرف التربوي بموقع "المسلم" إن الشذوذ الجنسي يأتي أحيانًا بدافع الانتقام من المجتمع في صورة فعل الفاحشة بأولئك الأطفال الصغار، فعادة ما يبدأ الشذوذ بأن يتم الاعتداء على أحد الأطفال ليتحول بعد ذلك ليصبح "توربيني" آخر وينتقم من كافة الأطفال، وفي حالة الاعتداء غير الرضائي على الضحية فإن ذلك يسبب نوعًا من عدم الإشباع لدى الفاعل، والذي قد يقرر في النهاية قتل المفعول به انتقامًا منه.

ويضيف الأستاذ خالد السيد: "الشذوذ لدى الأطفال يتحول بعد ذلك إلى

حالة رضائية بعد الاعتداء عليه واعتياده بسبب عدم وجود وازع له من دين أو أخلاق في تلك السن المبكرة وغياب الأهل وولي الأمر، لتصبح بعد ذلك عملية اعتيادية يرتضيها ربما تتحول بعد ذلك إلى عملية عكسية يقوم فيها بدور الفاعل، ويتولد لديه حالة من العنف الجنسي الداخلي كنوع من رد الفعل والانتقام".

وعن العقبات التي تواجه احتواء أطفال الشوارع يقول الأستاذ أحمد سمير إنه بعيداً عن العقبات الاجتماعية التي تحتاج إلى حلول طويلة الأمد مثل الفقر والتفكك الأسري، تظل هناك عقبتان أساسيتان؛ وهما ضعف الرعاية الحكومية، وافتقار التنسيق بين الوكالات المختصة.

الفساد وضعف الرعاية الحكومية

يقول الأستاذ أحمد سمير:

"الإعانات من وزارة الشئون الاجتماعية لدور الرعاية ضئيلة للغاية ولا تسد حاجة الأطفال، ويعقبها إجراءات روتينية وبيروقراطية كثيرة تعيق العمل، على عكس العمل الخيري والأهلي الذي يتسم بالسخاء، خاصة من الطبقات الغنية في المجتمع".

فبعد اعتماد الدولة لخط الطفل الساخن (١٦٠٠٠) أصبحت تأتي لدور رعاية أطفال الشوارع العديد من الحالات، والتي تزيد على "قدرة الاستيعابية لتلك الدور في كثير من الأحيان، ولكن تظل قدرة الدولة على احتواء تلك الحالات محل شكوك.

يقول السيد حسن علي حسن المشرف الاجتماعي على أحد الملاجئ في أسوان: "الشارع أفضل لهؤلاء المساكين من هذه الدور وما يلاقونه من معاملة سيئة"، مشيراً إلى الفساد الإداري الذي يصل إلى حد عدم صرف البطاطين والطعام إلا في حالة وجود زيارات تفتيشية فقط.

ويضيف السيد حسن: "لقد تجولت في الدار التي أعمل فيها ليلاً ومررت على الأقسام، ووجدتهم ينامون على الأرض وملابسهم رثة وممزقة لا يجدون حتى ما يقيهم برودة الشتاء، وسألت المشرفة عن الأطفال - وهي سيدة مسنة تقيم مع الأطفال وتعاملهم بقسوة -: "أين البطاطين والملابس الخاصة بالأولاد ؟.. فردت: إنها بالمخازن ولا تصرف إلا عندما تكون هناك زيارة لأحد المسئولين".

وتقول السيدة بثينة حسين الأخصائية الاجتماعية بدار أيتام دمنهور: "لدينا ثلاثة أنواع من الأطفال: الأيتام، وضحايا التفكك الأسري، ومجهولو النسب. ومشكلة القسمين الأخيرين هو أنهم في كثير من الأحيان لا يجدون من يتبرع لهم، فالغالبية تأتي لكفالة الأيتام ويرفضون كفالة مجهولي النسب أو ضحايا التفكك الأسري بسبب أن نفقتهم تكون على آبائهم الأصليين، والذين بدورهم يرفضون ضم حضانة الأطفال إليهم، مما يجعلهم عرضة للضياع".

وبسبب ضعف التمويل الحكومي فإن

تلك الدور لا تستطيع الوفاء بأدنى قدر من التزاماتها، إضافة إلى الفساد الحكومي الذي ينخر في عضد تلك المؤسسات. يقول السيد حسن: "في ميعاد استيقاظ الأولاد ذهبت إلى مكان الإفطار الخاص بهم فوجدتهم يتناولون إفطاراً عبارة عن فول ورغيف عيش بدون إضافات وكوب شاي يعبأ بالمغرفة ليس له طعم ثم بعد ذلك يذهبون إلى دورات المياه لينظفوها وينظفوا باقي الدار وحتى مكتب مديرة الدار ثم بعد ذلك يذهبون إلى الورشة للعمل بها حتى آخر النهار، وهكذا .. فبالله عليكم ماذا ننتظر من هؤلاء؟ هل يعقل أن ننتظر منهم إنسانًا سويًا مفيداً للمجتمع أم ننتظر منهم مجرمين وقتلة ينتقمون من هذا المجتمع الظالم الذي أوصلهم إلى هذا المصير!؟".

وتشير الأرقام الحكومية المصرية إلى أن عدد أطفال الشوارع في القاهرة والإسكندرية يصل إلى ٩٢ ألفًا فقط؛ في حين يتفق المسئولون الحكوميون على أن حجم التمويل الحكومي لا يكفي لسد الحاجات الاجتماعية لتلك الظاهرة.

وتقول السيدة بثينة حسن: "بسبب ضعف الإعانة الحكومية التي تصل إلى ١١ ألف جنيه فقط في العام، موزعة على ما يقرب من ٥٠ طفلاً، ما يعادل ٦٠ قرشًا فقط يوميًا لكل طفل، فإن هذا المبلغ لا يسد حاجات الأطفال من مأكل وملبس وتعليم ومواصلات وكافة الاحتياجات الأخرى، لذا نعتمد بصورة أساسية على تبرعات أهل الخير، مثل نظام الكفالة الشهرية أو نظام الأسر البديلة التي تتبنى أحد الأطفال بعد إجراء بحث اجتماعي عن حالتها المادية والاجتماعية".

التنسيق بين الوكالات الحكومية

كما تمثل مشكلة التنسيق بين الوكالات معضلة لقضية أطفال الشوارع، حيث يقوم الأهل بالبحث عن أطفالهم الهاربين عن طريق شرطة النجدة، في حين تقوم دور الإيواء بإبلاغ قسم رعاية الأحداث عن الأطفال الذين يتم العثور عليهم دون معرفة بياناتهم الحقيقية، ويظل الطرفان كلٌ يبحث في جهة دون الالتقاء بالآخر.

يقول الأستاذ أحمد سمير: "كثيراً ما يراوغ أطفال الشوارع الذين يتم العثور عليهم لكي لا يتم إعادتهم إلى منازلهم، ويرفضون إعطاء بياناتهم الحقيقية للاتصال بذويهم، ويكون ذلك بسبب عدم ارتياح أولئك الأطفال في بيوت أهلهم بسبب العنف الأسري أو إجبارهم على العمل والاستيلاء على أموالهم، أو في حالة الفتيات الإجبار على الزواج من أثرياء طاعنين في السن، أو ببساطة بسبب رغبة أولئك الأطفال في الانحراف دون قيود".

الحلقة المفرغة

وعادة ما لا يرغب أولئك الأطفال في العودة إلى منازلهم أو دور الرعاية، ويسيرون في مجموعات ويفترشون

الأرصفة ويتسولون أمام المطاعم الكبرى وينامــون في العــراء، ولا يرغـبــون في الالتزام بنظم دور الإيواء، ولا يأتون إليها إلا في حالة نضوب المال والطعام .

وعندمـــا يتم إيداعـــهم تلك الدور يقومون بالهرب منها، فيقوم المسئولون عن الدور بعمل محاضر في الشرطة للإبلاغ عن اختفاء هؤلاء الأطفال، ويبلغون قسم رعاية الأحداث بمديرية الأمن لتقوم بدورها بشن حملات في المناطق التي يتواجدون فيها ويتم القبض عليهم وحجزهم في أقسام الشرطة ثم عرضهم على النيابة في اليوم التالي .

ولعدم وجود تهمة أو أهل لاستلامهم تقوم النيابة بالإفراج عنهم .. ليخرج أولئك الأطفال من تلك المحنة أكثر حنكة ودربة على الإجرام، وبجروح نفسية أكثر عمقًا أيضًا بسبب انتهاكات المجرمين العتاة في الحجز المؤقت، والذين يمارسون عليهم كافة أنواع الاعتداءات، كما يخرجون بغصة المهانة والرغبة في الانتقام .. ويصبحون أكثر دراية أيضًا بطرق الانفلات من بين أصابع السلطات .

ومثل تراب الطريق الذي تنقله الرياح إلى كل مكان وتثيره لكي يصل إلى عنان السماء، فإن مشكلة أطفال الشوارع إذا سمح المجتمع بانتشارها فسوف تزكم الأنوف، وسوف يتنفس غبارها الجميع .

وتخرج صحف الصباح المصرية بخبر جديد بعد التصديق على حكم إعدام "التوربيني".

لقد ظهر "توربيني" جديد .. هذه المرة في أسيوط، يقوم باغتصاب الأطفال والاستيلاء على أموالهم ثم قتلهم وإلقاء جثثهم في الصحراء .. ليبدأ عهد جديد من إجرام الأطفال ضد الأطفال في مكان آخر .

ثم يظهر توربيني ثالث في الهرم، يعتدي على الأطفال ويجبرهم على التسول ويستولي على حصيلتهم، ثم يعتدي عليهم جنسيًا في آخر اليوم .

وتحت أشعة شمس يوليو اللافحة في بقعة أخرى يظل إبراهيم يدور في الشوارع بحثًا عن المهملات البلاستيكية، وأثناء حكاية مأساته بجوار مزلقان السكة الحديد يتوقف فجأة عن الكلام وتتسع حدقتا عينيه بعد أن رأى كاميرا التصوير .. والتي ترجمها عقله على الفور بغريزة طفل الشوارع أن الصورة سوف تكون خيطًا يقربه من قسم الشرطة من جديد، وتجعله على بعد خطوة أيضًا من غرفة الاحتجاز، حيث تجري كل الموبقات .

ينتفض إبراهيم مسرعًا وينظر في اتجاه مزلقان السكة الحديد وينطلق جريًا على القضبان، ويتلفت يمنة ويسرة وهو يعبر شريط القطار ليهرب إلى الجهة الأخرى من المكان ويذوب بين المارة في الزحام .

يختفي إبراهيم .. ثم تدوي أجراس إنذار السكة الحديد وتومض أنوار المزلقان الحمراء، وتلوح سحابة من الغبار في الأفق القريب وتتسرب رائحة التراب .. ثم تدوي في الأجواء أصوات صافرة طويلة حادة .. فقد جاء "توربيني" جديد .

تحقيق : محمد الزواوي

أنور الجندى مؤرخ الفكر والثقافة الإسلامية (٢/٢)

بقلم : أبو الحسن الجمال

كذلك تناول الأخطار التى تهدد النفس الإنسانية وقوامها الفلسفة المادية وتتمثل فى الآتي :

١- الإلحاد فى مواجهة الإيمان والهجوم العاصف على العقائد والأديان .

٢- إعلاء الغريزة واعتبارها مصدراً أساسياً لكل تصرفات الفرد .

٣- تأكيد الذات وتحقيقها بحرية التصرف دون التقدير للضوابط التى تحفظ كيات الفرد أو الحدود التى تحفظ علاقات الأفراد .

وتلك النظريات طبيعية بالنسبة للغرب لأنها مرتبطة بتاريخه وعقائده وبالأرضية الإغريقية التى اتبعتها الحضارة الحديثة وهذه الأصول مستمدة من الأصول والأفكار اليونانية القديمة ، أما العقل العربي الإسلامي فلا يقبل هذه النظريات لأنها تتعارض مع الفطرة التى فطر عليها الإنسان ... (١)

(٢) دحض الأفكار التى قالت بأن عصر النهضة العربية الحديثة قد بدأ مع مجيء الحملة الفرنسية التى نشرت العلم وكانت أساساً للتنوير العربى الحديث، وأبان زيف هذا الإدعاء واثبت أن اليقظة قد بدأت قبل مجيء الحملة وأنه كان يوجد مفكرين مستنيرين دلوا على وجود هذه اليقظة بل إن الغرب قد بدأ ينزعج لها ويتابعها عن قرب عن طريق جواسيسه الرحّالة والقناصل والتجار، ومن هؤلاء العلماء النوابغ الذين أيقظوا الشرق من أمثال :

أنور الجندى

١- البغدادي صاحب خزانة الأدب ١٦٨٣م، حيث رد على الأمة تذوق اللغة والأدب .

٢- الجبرتي الكبير والد المؤرخ عبدالرحمن ١٧٧٤م، حيث تولى تجديد علوم الهندسة والكيمياء .

٣- محمد بن عبدالوهاب ١٧٩٢م، العودة بالإسلام إلى المنابع وتحرير عقيدة التوحيد.

٤- مرتضى الزبيدي ١٧٩١م، حيث قام ببعث التراث اللغوي والديني

٥- محمد بن على الشوكانى ١٨٣٠، حيث أعلن رفض التقليد فى الدين ... (٢) .

وبرغم هذه الأدلة الدامغة فإن بعض المفكرين عندنا تتجاهل وجود هذه النهضة ، وتزعم أن عصر ما قبل الحملة الفرنسية عصر ظلام دامس ، عصر انتشار الجهالات والاستبداد ، ولم يكلف احدهم خاطره بالنظر فى المخطوطات الغزيرة الجليلة الفائدة التى تزخر بها مكتبات العالم ، حيث إن الأرشيف العثماني لم يمتد إليه أيادى البحث إلا فى حدود ضيقة ، لأنهم يستسهلون فيأخذون عن أسيادهم الغرب بلا تدقيق وروية، ومن هؤلاء مَن داجن وصار يتخبط واقتحم مجال التاريخ ولم تتوفر فيه نزاهة المؤرخ، فكذب وافترى ويأتي على رأس هؤلاء لويس عوض مؤلف كتاب "تاريخ الفكر المصرى الحديث" الذى رفع من شأن الخونة والجواسيس وخوّن كل بطل جسور، فلا تعجب منه وهو يتهم سليمان الحلبي بأنه جاسوس، جبان، رعديد، بينما أعلى من شأن الخائن المعلم يعقوب حنا ، حيث وصفه بأنه "رائد الاستقلال المصرى الحديث"، وأخيراً صدرت بعض الأطروحات التى تناولت هذا العصر بحيادية، منها دراسات الدكتور رءوف عباس، والدكتور عبدالله العزباوى، والدكتور عبدالرحيم عبدالرحمن، والدكتورة نيللى حنا، وغيرهم ...

(٣) فند الآراء والأفكار التى سادت فترة ورفعت من شأن أناس اشتهر أمرهم بأنهم أساس نهضتنا الحديثة منهم :

طه حسين : كتب عنه الكثير من فصول كتبه وخصه بأكثر من كتاب منها : "طه حسين حياته وفكره فى ميزان الإسلام"، و"محاكمة فكر طه حسين"، و"أكذوبتان فى تاريخ الفكر الحديث طه حسين ولطفى السيد"، تناول فيها أفكاره منذ دراسته فى الأزهر وسبب خروجه من الأزهر، ودخوله الجامعة المصرية بمساعدة لطفي السيد، واحتضان المستشرقين له وتأثره بهم فى أطروحته للدكتوراه عن "المعرى" حيث حشي هذه الرسالة بالعديد من الأغلاط التاريخية والأدبية مجاملة لهؤلاء الذين احتضنوه وخلعوا عليه الألقاب والدرجات والجوائز، ثم يرسل فى بعثة إلى فرنسا ويضعون فى طريقه الفتاة التى صارت زوجته وهى من عائلة كاثوليكية متعصبة، والتي لم تسلم حتى

رحلت عـام ١٩٨٩، وهى التى قـدمـتـه للمـجـامع وأعـلام الفكر، ووضع هناك أطروحـتـه عـن "ابن خلدون" تحت إشـراف عالم الاجتماع اليهودي "إميل دور كايم"، وتحامل على ابن خلدون تحاملاً شديداً وكان معـاصـره هناك الدكـتـور محـمـد صـبـري السربونى الذى قدم الدراسات القيمة التى اعـتـمـدت على الوثائق والمصادر والتـحق بالوفـد المصرى فى باريس يشـد من أزره، ويكون بجانب سعد زغلول وزملائه، أما طه حسين فـقـد آثر السلامـة، ومع هذا لم يحظ الدكـتـور صبـري بأي تأييـد، ومـات مكتئباً فى أواخر السبعينيات.

ثم يرجع طه حسين من بعثته ليبشر بأفكاره التى صدمت المجتمع وكتابه عن الشعر الجاهلي الذى أثار ضجة كبيرة حوله وصلت للقضـاء، وانحاز العلمانيـون معـه وعلى رأسهم حزب "الأحرار الدستوريين"، مروراً بكتاب "مستقبل الثقافة فى مصر" الذى أنكر عروبة مصر وارتباطها بشعوب البحـر المتوسط وصولاً إلى مؤلفه الفتنة الكبرى الذى أنكر فيه دور عبدالله بن سبا فى الفتنة والمعارك التى حدثت بين على ومعاوية، بل زعم أنها شخصية أسطورية افـتـعلها المسلمون فى الحقب المتـتالية، نتيجة الخلاف بين السنة والشيعة، ولم يقم بالدليل على ذلك، وإنما قـدم الفـرض على أنه من الثـوابت، بالرغم من أن كـبـار المؤرخين قد ذكروه كالطبري، والبغدادي فى "الفرق بين الفرق"، والشهرستانى فى "الملل والنحل"، وابن حزم فى "الفصل بين الملل والـنـحـل والأهـواء"، وبـرغـم مـن بـعـض المؤيدين لفكر طه حـسـين والمهللين له ينسبون إليه ليبراليته وتحرره وقبوله بالرأي الآخر، إلا أن الواقع يناقض ذلك فلم يطق قبول رأى ومناقشة الطالب محمود محمد شـاكـر الذى كـان أول من اكـتـشف زيفـه وسطوه على كتاب "مرجليوث" فى نظرية انتحال الشعر الجاهلي فى مقال قرأه شاكر فى مـجلة "الدراسـات الأسـيـوية"، وعـمـل على تركه الجامعة، وعندما كان يفتخر بأنه يطبق منهج ديكارت فى أبحاثه وما يدعو إليه، نشر الطالب محمود محمد الخضيرى ترجمة كتاب "مقال فى المنهج" ليفضح به طه حسين، وإدعاءاته، فعمل بكل ما يملك على عدم قبول الخضيرى مدرساً بالجامعة، ونفس الطريقة اتبعـهـا مع غـريمه الدكـاترة زكى مبارك، فعمل على طرده من الجامعة، فـمات من الحـسـرة، والدكـتـور البـهـيـتـى والدكتور محـمـد م. حسين فكان لا يقـبـل إلا كل طائع مصفق مهلل لآرائه .. (٣)

وقد أصدر مؤخراً أستاذ جامعي فاضل دراسة عن اتجاه طه حسين السياسي فخلت من مـراجع أنور الجندى، فـاتصلت به لتتضح لى علته، فـقـال "لأن أنور الجندى يكفـر طه حسين"، فـقلت له: "ليثـبت لنا بالدليـل القاطع عن كلمة واحدة كفر بهـا أنور الجندى أحد، أو أى مـفكر إسـلامى متـزن؛ طه حسين أو غـيره من الغـلاة، فـهل مناقـشـة الرأي وتفنيـده يسـتـدعى

إطلاق الكلام المرسل الذى لا يطلقه إلا من عجز عن الرد العلمي المقنع ، فالباحث الذى يتحيز أو يستخدم عواطفه للدفاع وتسفيه الرأي الآخر هو عينه فساد المنهج العلمي .

على عبدالرازق : رد على كتابه "الإسلام وأصول الحكم "وهو بمثابة " حاشية على عبدالرازق على متن مرجليوث"، وهو السر الذى كشف عنه الدكتور ضياء الدين الريس فى دراسته الشهيرة "الإسلام والخلافة فى العصر الحديث"، ونادي على عبدالرازق بروحانية الإسلام، وأنه لا يوجد فى تعاليم الإسلام ما يدل على القول "بدولة الإسلام"، مع أنه قد درس هذا فى الأزهر، ووصل إلى أعلى الدرجات و كان من هيئة كبار العلماء، وكان الخطر الحقيقي من تأليف كتاب على عبدالرازق هو : "هدم مفهوم الإسلام بوصفه ديناً ودولة ونظام مجتمع ومنهج حكم جامع"، ويعرض ردود العلماء حول هذا الكتاب منهم محمد الخضر حسين، وقول الزعيم سعد زغلول، وقد رجع على عبدالرازق عن أفكاره هذه كما يقول الدكتور محمد رجب البيومى، ومع ذلك يعاد طبع الكتاب من قبل الدوائر العلمانية دون الإشارة إلى قصة رجوعه هذه، أو إلى رأى سعد زغلول فى الكتاب ... (٤) .

وكذلك فند آراء وجرجى زيدان حول تاريخ الإسلام وكتابه "تاريخ آداب اللغة العربية"، و"روايات تاريخ الإسلام" الذى استقى مادتها من الأساطير والآراء الشاذة التى روجها المستشرقون، وكان الأستاذ أنور فى بداية حياته معجباً بجرجى زيدان حتى كتب عنه كتاباً صدر عن مكتبة الأنجلو المصرية فى منتصف الخمسينيات، ولكنه رجع (والرجوع للحق فضيلة) ليكشف عن فساد منهجه فى كتابة التاريخ الإسلامي فى معظم مؤلفاته - فيما بعد (٥) .

وتناول أيضاً أعمال كلا من : سلامة موسى، ولويس عوض، ونجيب محفوظ، ولطفى السيد، ومحمد حسين هيكل، ومحمد التابعي، وأمينة السعيد، وإحسان عبدالقدوس وغيرهم .

وأبان عن دور القمم الشوامخ الحقيقيين الذين أغفلهم التاريخ .

(٤) الحضارة العربية والحضارة الغربية:

رصد أنور الجندى مقومات الحضارة الإسلامية وإسهاماتها الإنسانية والحضارية، فكانت المشعل الذى أنار الكون قروناً متتالية، فإذا أخفقت فترة وجدت من يعيدها إلى الآفاق مرة أخرى لأنها متجددة وتستمد مكانتها من القرآن والسنة الخالدين خلود الدهر، ففي رأيه أن حضارة الإسلام لقد توقفت عن العطاء بعد أن أعطت العالم والإنسانية أعظم تراث من العدل والرحمة والإخاء البشرى وحطمت قواعد الظلم والعبودية والرحمة التى

عرفتها حضارات الفراعنة واليونان والهنود والفرس، وأقامت المجتمع الرباني، وقدمت المنهج التجريبي أساس الحضارات الحديثة، ورفعت البشرية عن وهدة الوثنية والمادية وحررتها، وكانت الحضارة الغربية قد ورثت تلك المعطيات جمعياً ولكنها شاءت أن تصهر مفاهيمها العلمية فى إطار الفكر البشرى الوثني القديم، ومن ثم تقدمت تقدماً مادياً بعيد المدى فى معطيات الحياة والبناء والعمل، ولكنها عجزت فى نفس الوقت أن تلبى مطالب الروح أو تحقق أشواق النفس أو توازن بين المادة والروح أو تجمع بين العقل والقلب أو تجعل الدنيا مزرعة للآخرة، فانصرفت عن أدق مفاهيم الاستخلاف فى الأرض، وعجزت عن فهم المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي والجزاء الأخروي ...(٦).

كان أكبر المحاذير أن جاء النفوذ الغربي ممثلاً بالاستعمار السياسي والعسكري والاقتصادى ففرض على المسلمين مفاهيم فى الاجتماع والتربية والقانون، وحجب أسلوب الحياة الإسلامي تماماً، وحاولت جميع النظريات الوافدة التى ظهرت فى العالم الإسلامي، وهى مجموعة من النقائص والأوشاب من ركام النظريات الغربية أن تشكل بالمزج والتركيب نظرية ملفقة، ولذلك لم تستطع أن تبقى طويلاً لأنها طبائع الأشياء وضد الفطرة، من جهة أخرى حاول بعض قادة الدول الإسلامية الجمع بين الإسلام والقومية والماركسية، أو بين الوحدة والحرية، أو بين الديمقراطية والاشتراكية، فلم تستطع هذه النظريات أن تحقق شيئاً، وكشفت بفساد تطبيقها عن حاجة البلاد الإسلامية إلى النظرة الإسلامية الأصيلة الجامعة ... (٧)

وبعد إفلاس الحضارة الغربية يبحث الأوربيون عن طريق ينقذهم من هاوية فكرهم المادي البغيض فنادي بعض مفكريهم بالتماس الطريق فى الإسلام، فيستشهد بقول زيجريد هونكة :

"إنه من خطل الرأي أن يدعى الأوربيون أن أوربا هي فقط العالم الحديث، ومن الحماقة أن يدعى الأوربيون أن تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم، فالحقيقة التى لا شك فيها أن سائر القارات التى يتكون منها عالمنا هذا قد ساهمت فى تكيف الأحداث العالمية التى تخضع لها شعوب المعمورة، ونحن لا نجد فيما كتب الأوربيون إلا إشارة عابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى ساعي البريد الذى نقل إليهم التراث اليوناني، إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم فناً وأدباً وعلماً وحضارة، كما اخذوا بيد أوربا وأخرجوها من الظلمات إلى النور كما نشروا لواء الحضارة أنى حلوا سواء فى أسيا أو أفريقيا أو أوربا" ... (٨) .

وعقب قائلاً : "إن مستقبل الحضارة العربية الإسلامية يتوقف على الأكثرية المطلقة بين الجماهير الواعية التى تدرك

ذاتها، وتعمل على تقوية نفسها لصد السيطرة الغربية والتحرر من الاستعمار بأوسع مظاهره والعمل على تنمية حضارتها الذاتية، وأن مستقبل الحضارة العالمية رهن بمستقبل الحضارة الإسلامية، لأن الحضارة الغربية قد مرحلة المحاق، ولم تعد فى استطاعتها أن تعطى شيئاً إلا إعطاء القلق والتمزق وأزمات التدمير الإجتماعى والخلقى، لذلك فنحن مطالبون بالعودة إلى المنابع" ...(٩).

(٥) اللغة العربية بين حماتها وخصومها:

كانت اللغة العربية ومازالت الجدار الذى حاول الأعداء اختراقه بمعاولهم والإجهاز عليه، برعوا وتفننوا فى استخدام كافة الأساليب والأسلحة الموجهة واضعين كل الإمكانات لتنفيذ مخطط الهدم، لأن اللغة العربية هي الوسيلة التى توحد الشعوب الإسلامية تحت رايتها، وقد وقف أنور الجندى ليرصد تلك التحديات منذ وقت مبكر من حياته الفكرية وخصها بفصول عديدة فى كتبه ومنها أعظم مؤلفاته على الإطلاق "اللغة العربية بين حماتها وخصومها" الذى ظهر فى أواخر الخمسينيات، وقد جرت المحاولات حول اللغة العربية وإثارة الشبهات حول مكانها ودورها الحقيقي فى مجال الفكر الإسلامي، وكانت المحاولة تعمل على مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية وتقول إنه مادامت اللاتينية قد ماتت ودخلت المتحف فلماذا لا تموت اللغة العربية وتتفرع عنها لغات إقليمية ويرد الجندى على هذه الأغاليط قائلاً:

"والحق أن وجه المقارنة غير صحيح وغير صادق، فقد انتهت اللاتينية وتحولت لهجاتها وليس كذلك ما يحدث بالنسبة للغة العربية التى مازال القرآن يظاهرها، ويجعل ما كتبت منه منذ أربعة عشر قرناً مقروءاً إلى اليوم، بينما لم يحدث ذلك مطلقاً لأي لغة من اللغات الحية التى تتغير كل ثلاثة قرون، فامرؤ القيس السابق للإسلام نقرؤه نحن الآن ونفهمه بعد أكثر من ١٥٠٠سنة، بينما شكسبير لا يفهمه الإنجليز وقد مضى عليه أربعمائة عام تقريباً، وهذه الظاهرة فى اللغة العربية تجعلها لا تخضع لعلم اللغات الذى يحاول أن يحكم على كل اللغات بظواهر عامة مشتركة، ومن تميز اللغة العربية أيضاً أنها ليست لغة أمة كما يحدث للغات جميعاً، ولكنها إلى ذلك لغة فكر وثقافة وعقيدة لحوالي مليار مسلم ... ومن هنا تنكشف فوارق كثيرة بين اللغة العربية (لغة القرآن) وبين اللغات القديمة كاللاتينية واللغات الأخرى"(١٠).

وتناول أشكال المؤامرة التى رعاها الاستعمار بكافة أنواعه فى كل البلاد الإسلامية التى احتلها وفى مصر فرض الإنجليز القس "دنلوب" مستشاراً لوزارة المعارف الذى حارب اللغة العربية فى المدارس، وأيضاً دعوة المهندس الإنجليزي

"ويلكوكس" للغة العامية، ودعوة مستر "ويلمور" أحد قضاة محكمة الاستئناف بالقاهرة لاستعمال العامية بدلاً من الفصحى ووضع لها قواعد، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب، ونجد "ولهلم سبيتا الألماني" أمين دار الكتب المصرية يجمع حروفاً إفرنجية للغة العامية المصرية لأجل إحيائها، ويؤلف كتاباً فى صرفها وكتاباً فى أمثالها وقصصاً عامة، ونشر ذلك باللغتين الألمانية والفرنسية داعياً إلى مشروع تعليم اللغة العامية بالحروف الأجنبية ... (١١) .

وفى سوريا دعا المستشرق "ماسينون" - وهو معروف بصلته بالدوائر الاستعمارية وصديق العديد من كتاب العرب العلمانيين - للعامية، وفى المغرب دعا المستشرق "كولان" إلى العامية المغربية، ودعا إلى تعميم اللغة الفرنسية فى المغرب، وفى تركيا نجحت الصليبية العالمية والصهيونية والماسونية فى اتخاذ الحروف اللاتينية مكان الحروف العربية التى عمّرت قرون، وكانت لغة التراث القومي لتركيا، وبذلك قطعوا الصلة بماضيها المشرق، وجاءت مرحلة تالية حمل لواء الدعوة إلى العامية كتاب من العرب مثل : لطفي السيد، وسلامة موسى، ولويس عوض، والخورى مارون غصن، ثم كانت دعوة عبدالعزيز فهمى بعد إنشاء المجمع اللغوي فى مصر، حين قدم مشروعاً يرمى إلى اتخاذ اللاتينية لرسم الكتابة العربية ... (١٢)

(٦) دور الأدب الإسلامى :

وعن اضمحلال الأدب العربى الحديث وتراجع دوره رصد أنور الجندى للسلبيات التى أدت إلى ذلك، فيتساءل : لماذا لا يكون الأدب العربى المعاصر عالمياً ؟

فبعد أن ظل الأدب العربى ملهمًا لكل الآداب الأخرى التى تأثرت به وكان أدباً عالمياً فى فترة ازدهار الحضارة الإسلامية، واليوم وقد أصابه الوهن والضعف وتخلف عن التجاوب مع مجتمعه، والسر فى عجزه أن يكون عالمياً راجعا فى فكر الجندى إلى الأسباب الآتية :

أولاً : أن الأدب العربى فى هذه المرحلة من تاريخ العرب والمسلمين قد انحرف عن طريقه الطبيعي بوصفه (وحدة) من وحدات الفكر الإسلامي بما دخل عليه من مفاهيم وقيم وافدة من ناحية المضمون، وبما اصطنع من أساليب غريبة من ناحية الأداء، ولذلك فإن الإنتاج الأدبي القائم الآن بين أيدينا لا يمثل حقيقة المشاعر النفسية والاجتماعية للمجتمع ، كما أن أسلوب أدائه غريب على الأدب العربى، لأنه يخضع للنظرية المادية التى وضعها "برونتيرو"، و"تين" و"سانت بيف" استمراراً من نظرية التفسير المادي للتاريخ والفلسفة المادية التى تعتبر الإنسان حيواناً سواء من ناحية الطعام "الماركسية"، أو من ناحية الجنس "الفرويدية" .

ثانياً : أن مترجمات الأدب العربى

إلى الآداب الأوربية التى تمت فى العقود الأخيرة لا تمثل حقيقة الأدب العربى، ولا أشواق النفس العربية الحقيقية، لأن هناك تحيزاً فى الانتقاء والاختيار "بضاعتنا ردت إلينا"، فإن هوى المترجمين هو أن يثبتوا أن الأدب العربى قد خضع تماماً للمفاهيم والأساليب الغربية .

ثالثاً : أن المصطلحات التى تستعمل الآن فى الأدب العربى دخيلة وغريبة عنه، فهو يحاول أن يخضع لأطوار الأدب الغربي التى تنتقل بين الكلاسيكية والرومنتيكية ومن السريالية إلى الوجودية..

رابعاً : مفهومنا الأصيل للأدب العربى أنه وحدة من وحدات الفكر الإسلامي يقوم على قيم الإنسان العليا : التوحيد، والأخلاق، والعدل، والإخاء الإنساني، وهى القيم التى قام عليها مفهوم الأدب العربى بعد الإسلام، ثم انحرف عنها بعد دخول الوثنيات المجوسية والفارسية، فالأدب العربى الآن يحاول البعض أن يفصل بينه وبين بلاغة القرآن والبيان العربى الممتد خلال العصور المجيدة والتي بعثت من جديد على أيدي : البارودي، وشوقي، والمنفلوطي، والزيات، والرافعي .. فهو الآن ينحدر إلى لغة الصحافة أو ما يسمى باللغة الوسطى، وأيضاً الشعر ينجرف إلى قصيدة النثر والشعر الحر ، ويتدلى إلى مفاهيم مكشوفة وأداء عربي رديء.

فالقصة تقوم على تصورات غربية مقتبسة من الآداب الغربية، ولا تمثل النفس العربية أيضاً، وهى تحاول أن تصور الانحراف والفساد والتحلل على أنها علاقات طبيعية فى المجتمع، حتى يعتقد الشباب شرعية وجود هذه الظاهرة والاندفاع نحوها، وهو ما يجرى عليه أغلب كتاب القصة الذين يصدرون أساساً عن مفهوم علماني لا يقر بقيم الدين الحق، وأخطر ما هنالك هو تقبل النظرية المسمومة التى تقول إن الأدب العربى له استقلاله عن الفكر الإسلامي .

إن قدرة الأدب العربى على الدخول فى مجال العالمية لا تكون بالتبعية للمذاهب الغربية، وإنما تكون بالتماس مفهوم الإسلام ... (١٣) .

وقد أشاد أنور الجندى بمدرسة الأدب الإسلامي التى نشأت لتعدل المسار وتحافظ على هويتنا الأصيلة وترجم لأعلامه الذين أخذوا على عاتقهم معالجة أدران المجتمع بالطرق الصحيحة ، لا عن هوى واستخفاف بالموروث الثقافي لأمتنا ، كما فعل العلمانيون الذين تحاصرهم الدوائر الصهيونية الماسونية التلمودية ويهيمنون على كافة وسائل الإعلام فى بلادنا ، فأعلام الأدب الإسلامي ظهروا منذ زمن بعيد وكان يتم التعتيم باستماتة حتى لا يصل تأثيرهم إلى المجتمع ، فعمل الجندى على دراسة آثار هؤلاء ومنهم: مصطفى صادق الرافعي، والسحار، وعلى

أحمد باكثير، ونجيب الكيلاني، ومحمد التهامي، محمد إقبال، والدكتور هدارة، وغيرهم ... (١٤) .

ويرجع الفضل لأنور الجندى أن عرّف الأجيال على تاريخهم المشرف الحقيقى الخالي من أسر النظريات الأيدلوجية الوافدة ، بعدما غرقنا خلال سنوات من التفسيرات الفاسدة التى جلبها قوم من بني جلدتنا من أناس هدفهم تشويه هذا التاريخ والحط من قيمته، فأصدر الدراسات القيمة التى بينت عظمة هذا التاريخ في كل العصور وأجلى أنصع الصفحات عن أعلام هم جند مجهولون أقصوا من ذوى الآراء المتطرفة الذين هيمنوا على منافذ الإعلام والفكر يعلون ما يروق لهم ويتجاهلون ما لا يروق لهم، وكذلك أبان زيف المناهج الفاسدة التى حاول البعض تفسير التاريخ من خلالها كالمادية الجدلية وغيرها، وجاءت دراساته تنصب على المنهج الإسلامي الخالص من كل الشوائب .

وفاته :

وفي مساء الاثنين ١٣ ذي القعدة سنة ١٤٢٢هـ الموافق ٢٨ يناير ٢٠٠٢م توفي إلى رحمة الله المفكر الكبير الأستاذ أنور الجندي عن عمر يناهز ٨٤ عاماً قضى منها

في حقل الفكر الإسلامي قرابة ٧٠ عامًا يقاتل من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية الأصيلة ورد الشبهات الباطلة والأقاويل المضللة وحملات التغريب والغزو الفكري، ف رحمة واسعة .

وعقب وفاته كتب الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي :

"علمت بالأمس القريب فقط أن الكاتب الإسلامي المرموق الأستاذ أنور الجندي قد وافاه الأجل المحتوم، وانتقل إلى جوار ربه، منذ يوم الاثنين ٢٨ يناير ٢٠٠٢م، بلغني ذلك أحد إخواني، فقلت : يا سبحان الله، يموت مثل هذا الكاتب الكبير، المعروف بغزارة الإنتاج، وبالتفرغ الكامل للكتابة والعلم، والذي سخر قلمه لخدمة الإسلام وثقافته وحضارته، ودعوته وأمته أكثر من نصف قرن، ولا يعرف موته إلا بعد عدة أيام، لا تكتب عنه صحيفة، ولا تتحدث عنه إذاعة، ولا يعرَّف به تلفاز .. كأن الرجل لم يخلف وراءه ثروة طائلة من الكتب والموسوعات، في مختلف آفاق الثقافة العربية والإسلامية. وقد كان عضوا عاملا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ومن أوائل الأعضاء في نقابة الصحفيين، وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٠م .. لو كان أنور الجندي مطربا أو ممثلا، لامتلأت أنهار الصحف بالحديث عنه، والتنويه بشأنه، والثناء على منجزاته الفنية".

الهوامش :

١- قضايا العصر فى ضوء الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩
٢- أنور الجندى، قراءة جديدة لتاريخنا الحديث، دار الاعتصام ١٩٩١ ص ٨ - ص٩
٣- أنور الجندى، مؤلفات فى الميزان، وزارة الأوقاف الإمارات د.ت . ص٦- ص٣٤
٤- مؤلفات فى الميزان مرجع سابق .. ص٣٥
٥- مؤلفات فى الميزان مرجع سابق . ص١١١
٦- أنور الجندى، نحن وحضارة الغرب، دار الاعتصام ١٩٨١ ص ١٠
٧- نحن وحضارة الغرب، مرجع سابق . ص ١١
٨- نحن وحضارة الغرب، مرجع سابق ص ٣٦
٩- نحن وحضارة الغرب، مرجع سابق ص ٣٨، ٣٩
١٠- أنور الجندى، الشبهات المطروحة فى أفق الفكر الإسلامي، دار الاعتصام د.ت ص١٥ . ١٤
١١- أنور الجندى، من التبعية إلى الأصالة، دار الاعتصام، د.ت، ص ١٣١
١٢- من التبعية إلى الأصالة، مرجع سابق، ص ١٢٧
١٣- أنور الجندى، المعاصرة فى إطار الأصالة، دار الصحوة، ١٩٨٧، ص ١٢٤ : ١٢٧
١٤- المعاصرة فى إطار الأصالة، مرجع سابق .. ص ١٢٧، قراءة جديدة لتاريخنا الحديث، مرجع سابق ص ١٨٥

الضرورات الخمس لاستصحاب الأمل

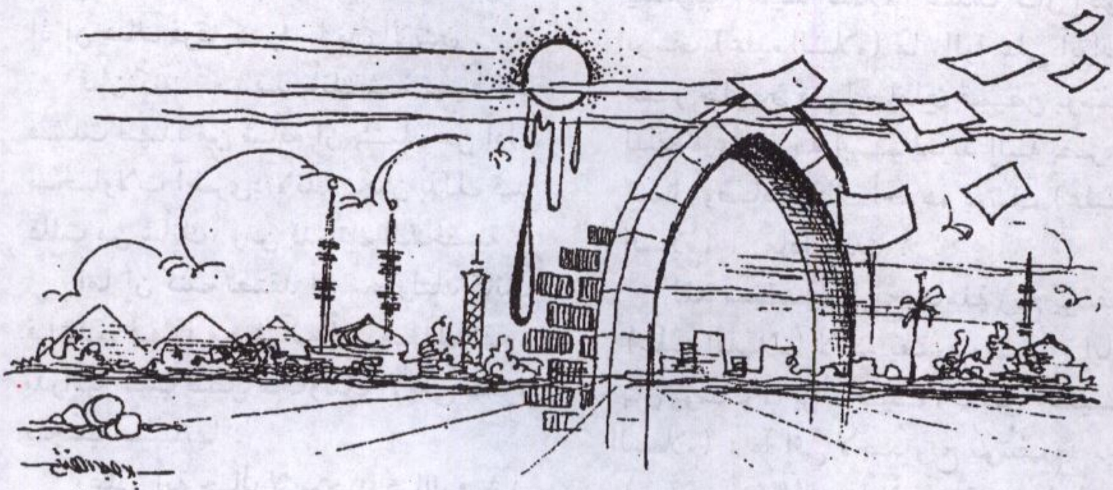

بقلم : أحمد زهران

نحن نحتـــاج في هذا الزمن إلى استـــصحـــاب الأمل في كل خطواتنا وفعالياتنا ؛ فمن يدري؟! ربما كانت هذه المصائب بابًا إلى خير مجهول، ورب محنة في طيها منحة ؛ ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ .. (البقرة : ٢١٦) .

واستصحاب الأمل ضرورة، خاصة ونحن نرى البعض يحرصون على بث اليأس وتزهيد الناس في الأعمال الجادة لأدنى قصور أو خسارة ظاهرية يشاهدونها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ .. (آل عمران : ١٥٦) .

وهذه مجموعة من الضرورات اللازمة التي إن قرأناها بفهم ووعي، فسنوقن أن استصحاب الأمل لا ينبغي أن ينفك عنا في حل أو ترحال، في عسر أو شدة أو ضيق، لطمأنة قلوبنا وتسكين نفوسنا، وتثبيت أقدامنا .. ومن هذه الضرورات :

أولا - الضرورة العقلية المنطقية

لو نظرنا إلى الحياة بروية؛ لرأينا أنها أشبه ما تكون "بفصل دراسي تتعرض فيه للاختبار ويتوقّع منك أن تحقق تقدمًا مهمًا خلال فترة زمنية معقولة، وإن لم تستفد في فصل الحياة فإنها ستعيد لك الدرس تلو الآخر حتى تتعلم وتنجح، وهذا يشبه إلى حدٍّ كبير الفصول الدراسية، فمتى ما رسب الشخص فإنه إما أن يُعيد الفصل حتى ينجح أو ينسحب !

فانظر، هل كنت تنظر لحالات الفشل

بأنها فشل كلي، أم كنت تنظر لها بأنها فشل للمحاولة ذاتها والتي قد قمتَ بها؟ إذ إن هناك فرقًا كبيراً ما بين الاثنين.

فإن كنت تعتقد بأنك شخصيًا قد فشلت فهذا من شأنه أن يُثنيك عن أداء محاولات أخرى؛ لأنك تكون بذلك قد قللت من شأنك، ومن قدراتك الشخصية.

أما إن كنت تعتقد أن محاولتك كانت فاشلة، فهذا من شأنه أن يجعلك تقوم بدراسة سبب فشل محاولتك الأولى لتقوم بتجنّب مُسبباتها.

وعلى أية حال لا يوجد هناك فشل حقيقي، فما ندَّعي بأنه فشل ما هو إلا خبرة قد اكتسبناها من واقع تجاربنا في الحياة، إذ إن الشخص الفاشل هو الذي لا يتعظ من تجاربه، بل يعتبر أن الأمر منتهيًا من حيث فشله" .. (وليد عبد الله الرومي، طريق النجاح، الكويت، ٢٠٠٠، ص ٢٥-٢٦) ... وكذلك هو صراع الحق مع الباطل؛ فافهم أخيًّ رعاك الله، ولا تسودّ الدنيا في وجوهنا!

ثانيا .. الضرورة التأملية الكونية

نحن مأمورون شرعًا بالنظر والتفكر والتدبر في آيات الله وخلقه، يقول تعالى: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ .. (يونس: ١٠١).

إن هناك تلازمية وانسجامًا بيننا وبين الكون، لا يشعر بهذا ويلاحظه إلا أصحاب البصر والفكر والتأمل، انظر إلى نبي الله يعقوب (عليه السلام) عندما كان إخوة يوسف (عليه السلام) ما زالوا على أبواب مصر خارجين منها حاملين قميصَ يوسف ليلقوه على وجه أبيهم ليرتد إليه بصره، كما أوصاهم بذلك أخوهم يوسف (عليه السلام) .. ماذا حدث؟

لقد سبقتهم الريح حاملة ريحِ يوسف (عليه السلام) لأبيه يعقوب مبشرة إياه بأن يوسف لا يزال حيًا، فنطق (عليه السلام): ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ .. (يوسف: ٩٤)؛ هذا لأن يعقوب (عليه السلام) عاش في انسجام مع الكون متأملاً ومعتبراً فتفاعل الكون معه بحمل البشرى والأمل.

فازداد إيمانًا تزداد يقينًا وأملاً واطمئنانًا، لأن فقدان الإيمان يعني فقدان البصيرة والتأمل ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ .... (يونس: ١٠١).

تعال معي الآن لنتأمل في الليل والنهار، ترى الشمس تغرب كل يوم ثم تعود لتشرق مرة أخرى، هذه ظاهرة تمر على الإنسان العادي مرور الكرام، ولكن صاحب العقل والفكر والنظر يجد فيها آية عميقة تنبئه أن الغروب لا يَحُولُ دون الشروق مرة أخرى في كل صبح جديد، والسواد كلما اشتد ينبثق منه الفجر، وكذلك المحن والأزمات يعقبها انفراج وارتياح.

أديب العربية مصطفى صادق الرافعي (رحمه الله) يشبه الإنسان بالفرخ ويشبه الأزمات والنكبات التي تمر به بجدار هذه البيضة فيقول : "ما أشبه النكبة بالبيضة، تُحسب سجنًا لما فيها، وهي تحوطه وتربيه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة والرضا إلى غاية، ثم تنفق البيضة فيخرج (أي ما فيها) خلقًا آخر، وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته، عمله أن يتكون فيها، وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل، فيخرج إلى عالمه الكامل".

ثالثا .. الضرورة التاريخية

التاريخ مليء بالأحداث والأمثلة والعبر التي تشعل في النفس ثقةً عميقة بالنصر، فكم من دولة قويت بعد ضعف ! وكم من أخرى ضعفت بعد قوة ! قال تعالى : ﴿ الم. غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ .. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .. (الروم : ١-٦) .

ولو تأملت في سورة الروم هذه لعلمت أنها سورة مكية نزلت أيام الاستضعاف في مكة قبل الهجرة، والمسلمون يعانون مرارة السجن في شعب أبي طالب، نزلت تبشرهم بالنصر والفتح والظفر!

قد يقول قائل ولكن التاريخ مليء بالأحداث المؤلمة ؛ فنقول له : نعم؛ ولكن لماذا تقف عندها ولا تتعداها ؟ ألم تتغير هذه الأحداث؟ ألم يتبدل الحال ؟ ألم تتحول هذه الأيام ؟ فحنانيك أيها اليائس والمتشائم ! ولتعلم أن بعض الشر أهون من بعض، وأن مع العسر يسراً، وأن بعد الكرب فرجًا، وأن بعد الضيق والخوف سَعَةً وأمنًا .

لقد ضاقت مكةُ برسول الله ومكرت به فجُعل نصرَه وتمكينَه في المدينة .

وأوجفت قبائل العرب على أبي بكرٍ مرتدة، وظن الظانون أن الإسلامَ زائلٌ لا محالة، فإذا به يمتدُ من بعد ليعم أرجاء الأرض .

وهاجت الفتنُ في الأمة بعد قتل عثمان حتى قيل : لا قرار لها ، ثم عادت المياه إلى مجراها ، وتوالت الفتوحات حتى وصل بنو عثمان قلبَ أوربا ..

وأطبق التتارُ على أمة الإسلام حتى أبادوا حاضرتَها بغداد سُرَّةَ الدنيا ، وقتلوا في بغداد وحدها مليوني مسلم، وقيل : ذهبت ريح الإسلام، فكسر الله أعداءه في عين جالوت وعاد للأمة مجدها ..

وتمالأ الصليبيون وجيشوا جيوشَهم وخاضت خيولُهم في دماء المسلمين إلى ركبها ، حتى إذا استيئس ضعيفو الإيمان نهض صلاح الدين فرجحت الكفةُ الطائشةُ وطاشت الراجحة، وابتسم بيت المقدس من جديد .

وقويت شوكةُ الرافضة حتى سيطر البويهيون على بغداد والعبيديون على مصر وكتبت مسبّة الصحابة على المحاريب، ثم انقشعت الغمة واستطلق وجه السُّنة ضاحكًا .

وهكذا .. يعقب الفرج الشدة، ويتبع الهزيمة النصر، ويؤذن الفجر على أذيال ليل مهزوم، فلم اليأس والقنوط ؟!

إن أهم ما ينبغي تعلمه أن جميع الذين حققوا إنجازات باهرة وخلدهم التاريخ قد تذوقوا طعم الفشل مراراً قبل أن يحققوا إنجازاتهم العظيمة .

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

رابعًا .. الضرورة الواقعية

بعض الناس ينظرون إلى الأحداث التي تمر بها مصر الآن، فيقول بعضهم (وبعدين ؟!)، ليستَ هناك نتيجة لما

نصنع، ويحدث نفسه أن أهل الباطل لا يعبئون بشيء، وأنهم ماضون قدمًا في تنفيذ مخططاتهم، ويقول لك انظر إلى عدد من استشهدوا وأُصيبوا واعتُقلوا، ولا فائدة !

ولست أدري لماذا يبحث هؤلاء عن مواطن الألم فقط ليفجروها وينكئوها، فأين مواطن الأمل والفرج ؟

خامسًا - الضرورة الشرعية

إن الخطاب القرآني جاء ناهيًا عن استصحاب اليأس لأنه قرين الكفر :

﴿ وَلا تَيْأَسُوا منْ رَوْح اللَّه إِنَّهُ لا يَيْئَسُ منْ رَوْحِ اللَّه إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .. (يوسف : ٨٧)، وناهيًا عن القنوط، لأنه قرين الضلال : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ منْ رَحْمَة رَبِّه إِلا الضَّالُّونَ ﴾ .. (الحجر : ٥٦) .

يَفيضُ من أملٍ قلبي ومن ثقة لا أعرفُ اليأسَ والإحباطَ في غَمَمِ
اليأسُ في ديننا كُفْرٌ ومَنْقَصةٌ لا يُنبِتُ اليأسَ قلبُ المؤمنِ الفَهِمِ

وكما يمر على الأمة لحظات من الهوان، فلا بد لها أيضًا من ساعات التمكين كما بشر بذلك رسول الله : "يبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وذلًا يذل الله به الكفر" .. (أخرجه أحمد ١٠٣/٤، وصححه الحاكم أيضًا ووافقه الذهبي) .

ويقول أيضًا : "والذي نفسي بيده ليفرجن الله عنكم ما ترون من الشدة، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنًا، وأن يدفع الله إليّ مفاتيح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله" .. (رواه البخاري ومسلم) .

إن المؤمن لا يعرف اليأس ولا القنوط، إن له غاية عظمى وهدفًا اساميًا ألا وهو رضا الله والجنة، وصدق الله خيث يقول الله : ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .. (النساء : ١٠٤) .

وكما يقول سيد قطب :

"فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروْحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنهم لا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق، وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه، وفي أنس من صلته بربه، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه، وهو في مضايق ومخانق الكروب (في ظلال القرآن، سورة يوسف، الآية ٨٧) .

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق .. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا، وألا نهلع ونجسب أننا هلكنا؛ أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبداً ! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية ! ونصر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا ! هنالك العروة الوثقى .. عروة السماء، وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة، ونتخذ من الزلزال بشيراً بالنصر، فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق" (في ظلال القرآن، سورة الأحزاب، الآية ٢٢) .

إني أتوق إلى انتصار عقيدة فيها لأنهار النجاة منابع
قالوا : تروم المستحيل ؟ فقلت بل وعد من الرحمن حق واقع
والله لو جرف العدو بيوتنا ورمت بنا خلف المحيط زوابع
لظللت أؤمن أن أمتنا لها يوم من الأمجاد أبيض ناصع
هذي حقائقنا وليست صورة وهمية فيها العنزل تنازع
أنا لن أمل من النداء فربما أجدى نداء من فؤادي نابع

أورخان محمد على

السلطان الذى قبل يد شيخه

كان السلطان (محمد الفاتح) يكن لأستاذه الشيخ (آق شمس الدين) مشاعر الحب، والإجلال، والتوقير، ويزوره على الدوام، حيث يستمع لأحاديثه ونصائحه، ويستفيد من علمه الغزير .. وكان أستاذه هذا مهيباً لا يخشي سوى الله، لذا فإنه عند قدوم السلطان (محمد الفاتح) لزيارته، لا يقوم له من مجلسه، ولا يقف له .

أما عند زيارته للسلطان (محمد الفاتح) فقد كان السلطان يقوم له من مجلسه توقيراً له، واحتراماً ويجلسه بجانبه .. وقد لاحظ ذلك وزراء السلطان وحاشيته، لذا لم يملك الصدر الأعظم (محمود باشا) من إبداء دهشته للسلطان فقال له : لا أدري يا سلطاني العظيم، لم تقوم للشيخ (آق شمس الدين) عند زيارته لك، من دون سائر العلماء والشيوخ، في الوقت الذي لا يقوم لك تعظيماً عند زيارتك له ؟!.

فأجابه السلطان : أنا أيضاً لا أدري السبب .. ولكني عندما أراه مقبلاً علي، لا أملك نفسي من القيام له .. أما سائر العلماء والشيوخ، فإني أراهم يرتجفون من حضوري، وتتلعثم ألسنتهم عندما يتحدثون معي، في الوقت الذي أجد نفسي أتلعثم عند محادثتي الشيخ (آق شمس الدين) .

وفي فتح القسطنطينية أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه، لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول، وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجداً لله في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله النصر ويسأله الفتح القريب.

وعاد السلطان محمد (الفاتح) عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية، ففرح السلطان بذلك وقال: ليس فرحي لفتح المدينة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

وذكر الإمام الشوكاني صاحب البدر الطالع أن (ثم بعد يوم - من الفتح - جاء السلطان إلى خيمة (آق شمس الدين) وهو مضطجع فلم يقم له، فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أن ادخل الخلوة عندك، فأبى، فأبرم عليه السلطان مراراً وهو يقول: لا.

فغضب السلطان وقال: إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى علي، فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا - وذكر له شيئاً من النصائح - ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي.

فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام، فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو.

(روائع من التاريخ العثماني، لأورخان محمد علي، ص ٤٧، والدولة العثمانية لعلي الصلابي، ص١٨٥)

حكم القاضي بقطع يد السلطان محمد الفاتح

أمر السلطان (محمد الفاتح) ببناء أحد الجوامع في مدينة (اسطنبول)، وكلف أحد العماريين الروم واسمه (إبسلانتي) بالإشراف على بناء هذا الجامع، إذ كان هذا الرومي معمارياً بارعاً.. وكان من بين أوامر السلطان: أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر، وأن تكون هذه الأعمدة

مرتفعة ليبدو الجامع فخماً، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري .

ولكن هذا المعماري الرومي - لسبب من الأسباب - أمر بقص هذه الأعمدة، وتقصير طولها دون أن يخبر السلطان، أو يستشيره في ذلك، وعندما سمع السلطان (محمد الفاتح) بذلك، استشاط غضباً، إذ إن هذه الأعمدة التي جلبت من مكان بعيد، لم تعد ذات فائدة في نظره، وفي ثورة غضبه هذا، أمر بقطع يد هذا المعماري .. ومع أنه ندم على ذلك إلا أنه كان ندماً بعد فوات الأوان .

ولم يسكت المعماري عن الظلم الذي لحقه، بل راجع قاضي اسطنبول الشيخ (صاري خضر جلبي) الذي كان صيت عدالته قد ذاع وانتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية، واشتكى إليه ما لحقه من ظلم من قبل السلطان (محمد الفاتح) .. ولم يتردد القاضي في قبول هذه الشكوى، بل أرسل من فوره رسولاً إلى السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة، لوجود شكوى ضده من أحد الرعايا .

ولم يتردد السلطان كذلك في قبول دعوة القاضي، فالحق والعدل يجب أن يكون فوق كل سلطان. وفي اليوم المحدد حضر السلطان إلى المحكمة، وتوجه للجلوس على المقعد قال له القاضي : لا يجوز لك الجلوس يا سيدي ... بل عليك الوقوف بجانب خصمك .

وقف السلطان (محمد الفاتح) بجانب خصمه الرومي، الذي شرح مظلمته للقاضي، وعندما جاء دور السلطان في الكلام، أيد ما قاله الرومي. وبعد انتهاء كلامه وقف ينتظر حكم القاضي، الذي فكر برهة ثم توجه إليه قائلاً : حسب الأوامر الشرعية، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصاً لك !! ذهل المعماري الرومي، وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي، والذي ما كان يدور بخلده، أو بخياله لا من قريب ولا من بعيد، فقد كان أقصى ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي. أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان (محمد الفاتح) فاتح (القسطنطينية) الذي كانت دول أوروبا كلها ترتجف منه رعباً، فكان أمراً وراء الخيال ... وبصوت ذاهل، وبعبارات متعثرة قال الرومي للقاضي، بأنه يتنازل عن دعواه، وأن ما يرجوه منه هو الحكم له بتعويض مالي فقط، لأن قطع يد السلطان لن يفيده شيئاً، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية، لكل يوم طوال حياته، تعويضاً له عن الضرر البالغ الذي لحق به. ولكن السلطان (محمد الفاتح) قرر أن يعطيه عشرين قطعة نقدية، كل يوم تعبيراً عن فرحه لخلاصه من حكم القصاص، وتعبيراً عن ندمه كذلك .

(روائع من التاريخ العثماني ص٤٨)

سأصدر فتوى بخلعك أيها السلطان

علم السلطان (سليم الأول) أن الأقليات غير المسلمة الموجودة في (اسطنبول) من الأرمن والروم واليهود، بدأت تتسبب في بعض المشاكل للدولة العثمانية، وفي إثارة بعض القلاقل، فغضب لذلك غضباً شديداً، وأعطى قراراه بأن على هذه الأقليات غير المسلمة اعتناق الدين الإسلامي، ومن يرفض ذلك ضرب عنقه. وبلغ هذا الخبر شيخ الإسلام (زمبيلي علي مالي أفندي)، وكان من كبار علماء عصره، فساءه ذلك جداً، ذلك لأن إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام يخالف تعاليم الإسلام، الذي يرفع شعار ﴿لا إكراه في الدين﴾ ... ولا يجوز أن يخالف أحد هذه القاعدة الشرعية، وإن كان السلطان نفسه .. ولكن من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان، الذي يرتجف أمامه الجميع؟ من يستطيع أن يقف أمام هذا السلطان ذي الطبع الحاد فيبلغه بأن ما يفعله ليس صحيحاً، وأنه لا يوافق الدين الإسلامي .. ليس من أحد سواه يستطيع ذلك، فهو الذي يشغل منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، وعليه تقع مهمة إزالة هذا المنكر الذي يوشك أن يقع.

لبس جبته وتوجه إلى قصر السلطان، واستأذن في الدخول عليه، فأذن له، فقال للسلطان: سمعت أيها السلطان أنك تريد أن تكره جميع الأقليات غير المسلمة على اعتناق الدين الإسلامي.

كان السلطان لا يزال محتداً فقال: أجل .. إن ما سمعته صحيح .. وماذا في ذلك؟

لم يكن شيخ الإسلام من الذين يترددون عن قوله الحق: أيها السلطان إن هذا مخالف للشرع، إذ لا إكراه في الدين، ثم إن جدكم (محمد الفاتح) عندما فتح مدينة (اسطنبول) اتبع الشرع الإسلامي فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام، بل أعطى للجميع حرية العقيدة، فعليك باتباع الشرع الحنيف، واتباع عهد جدكم (محمد الفاتح).

قال السلطان سليم وحدته تتصاعد: يا علي أفندي ... يا علي أفندي: لقد بدأت تتدخل في أمور الدولة ... ألا تخبرني إلى متى سينتهي تدخلك هذا؟

– إنني أيها السلطان أقوم بوظيفتي في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وليس لي من غرض آخر، وإذا لم ينته أجلي، فلن يستطيع أحد أن يسلبني روحي.

– دع هذه الأمور لي يا شيخ الإسلام.

– كلا أيها السلطان .. إن من واجبي أن أرعى شئون آخرتك أيضاً، وأن أجنبك كل ما يفسد حياتك الأخروية، وإن اضطررت إلى سلوك طريق آخر.

– ماذا تعني؟

– سأضطر إلى إصدار فتوى بخلعك أيها السلطان، بسبب مخالفتك للشرع

الحنيف إن أقدمت على هذا الأمر .

وأذعن السلطان (سليم) لرغبة شيخ الإسلام، فقد كان يحترم العلماء، ويجلهم، وبقيت الأقليات غير المسلمة حرة في عقائدها، وفي عباداتها، وفي محاكمها، ولم يمد أحد أصبع سوء إليهم .

(روائع من التاريخ العثماني ص٥٧)

وفد نصراني يطلب حكم المسلمين

لما فتح السلطان العثماني مراد الثاني مدينة سلانيك عام ١٤٣١م وهزم البندقيين شر هزيمة ودخل المدينة منتصراً - أعلم الحاجب السلطان أن وفداً من مدينة (يانيا) قد حضر، وهم يرجون المثول بين يديه لأمر هام .. تعجب السلطان من هذا الخبر، إذ لم تكن له أي علاقة بهذه المدينة التي كانت آنذاك تحت حكم إيطاليا .

كانت مدينة (يانيا) تحت حكم عائلة (توكو) الإيطالية، وعندما مات (كارلو توكو الأول) عام ١٤٣٠م ، وولي الحكم بعده ابن أخيه (كارلو توكو الثاني) ولكن أبناء (توكو الأول) غير الشرعيين ثاروا وطالبوا بالحكم، فبدأ عهد من الاضطراب والفوضى والقتال عانى منه الشعب الأمرين، وعندما سمعوا بأن السلطان (مراد الثاني) بالقرب منهم في مدينة (سلانيك)، قرروا إرسال وفد عنهم .

أمر السلطان مراد رئيس حجابه بالسماح للوفد بالدخول عليه، ثم قال لرئيس الوفد بواسطة الترجمان :

أهلاً بكم، ماذا أتى بكم إلى هنا ؟ وماذا تبغون ؟

قال رئيس الوفد : أيها السلطان العظيم، جئنا نلتمس منكم العون ، فلا تخيب رجاءنا .

- وكيف أستطيع معاونتكم ؟

- يا مولاي، إن أمراءنا يظلموننا، ويستخدموننا كالعبيد، ويغتصبون أموالنا ثم يسوقوننا للحرب .

- وماذا أستطيع أن أفعل لكم ؟ إن هذه مشكلة بينكم وبين أمرائكم .

- نحن أيها السلطان لسنا بمسلمين، بل نحن نصارى، ولكننا سمعنا كثيراً عن عدالة المسلمين، وأنهم لا يظلمون الرعية، ولا يكرهون أحداً على اعتناق دينهم، وإن لكل ذي حق حقه لديهم .. لقد سمعنا هذا من السياح، ومن التجار الذين زاروا مملكتكم، لذا فإننا نرجو أن تشملنا برعايتكم وبعطفكم، وأن تحكموا بلدنا لتخلصونا من حكامنا الظالمين .

ثم قدموا له مفتاح المدينة الذهبي .. واستجاب السلطان لرجاء أهل مدينة (يانيا) ، وأرسل أحد قواده على رأس جيش إلى هذه المدينة، وتم فتحها فعلاً في السنة نفسها ، أي في سنة ١٤٣١م .. هذه ليست قصة خيالية.. ومع أنها قصة غريبة، إلا أنها حقيقة وتاريخية.. لقد كان المسلمون رمزاً للعدل والإنصاف .

(روائع من التاريخ العثماني ص ٣٢)

سلسلة روايات إسلامية

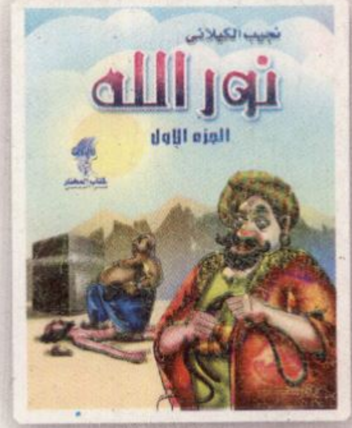

كتاب المختار

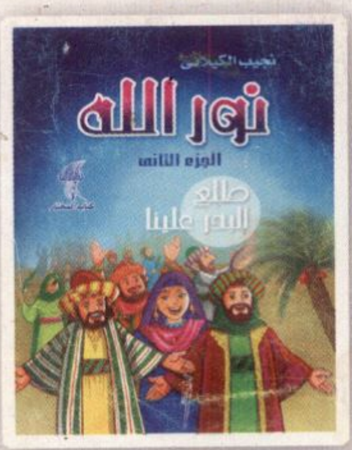

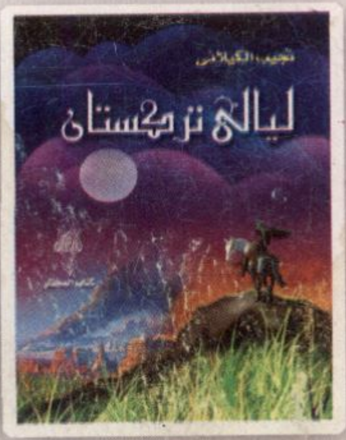

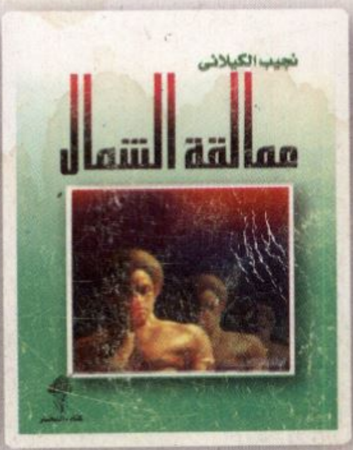

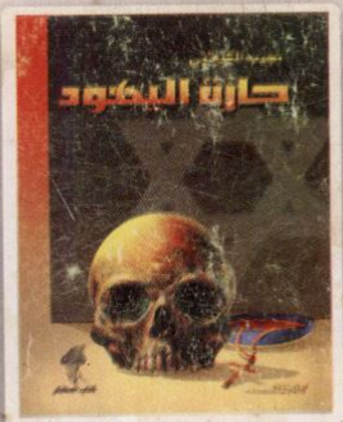

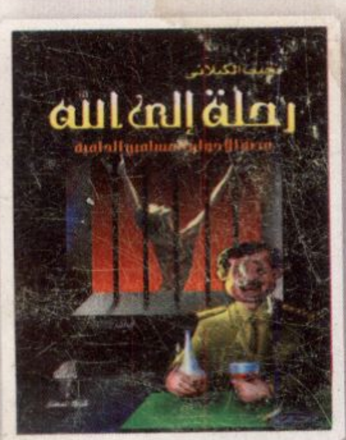

حاليا مع الباعة والمكتبات وتوزيع الأخبار